قراءة في

تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى

أشرف صالح محمد سيد

المؤلف الصغير

لبنان
Arabic eBook 2008 .com
الكتاب العربي الإلكتروني

قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى

يصدر هذا الكتاب في ذكرى مرور سبع سنوات على وفاة
المؤرخ الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد
يونيو ٢٠٠١ – يونيو ٢٠٠٨

قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى

أشرف صالح محمد سيد

عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب

عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

الطبعة الإلكترونية الأولى

٢٠٠٨

شركة الكتاب العربي الإلكتروني - لبنان

www.arabicebook.com

الفهرسة أثناء النشر

٠٧٤, ٩٠٩ صالح، أشرف

قـراءة في تـاريخ وحـضارة أوربـا العـصور الوسـطى/ أشرف صـالح محمـد سـيد.– ط ١.– لبنـان: المؤلـف، توزيـع شـركة الكتاب العربي الإلكتروني، ٢٠٠٨.

١٠١ص؛ إيضاحات ملونة.– (المؤرخ الصغير؛ ٤).

– رقم الكتاب ١٥٨٧ بموقع Arabic eBook

– التوزيع: **www.arabicebook.com**

– يشتمل على ملاحق وخرائط ملونة

Cover photo: World Wide Web
Cover designed by: Ashraf-salih@hotmail.com

التوزيـــــــــع: شـــــــركة الكتـــــــاب العربـــــــي الإلكترونـــــــي

بئر حسن- شارع السفارة المغربية - بيروت – الجمهورية اللبنانية

صندوق بريدي: ٢٥/٩٥ الغبيري- تليفاكس: ٤-٣-٢-٨٥٩٥٠١-٩٦١١

corporate@arabicebook.com

www.arabicebook.com

" عزيزي الطالب لا تدع قلمك يسبق فكرك"

" جميل أن نرى الرذيلة ونتخطاها ونرى التعصب ونتجنبه"

د.رأفت عبد الحميد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

عميد كلية الآداب– جامعة عين شمس

مدير مركز بحوث الشرق الأوسط

مستشار وزير التعليم العالي

فهرس

الإهداء ٧

مقدمة ٨

المدخـــل

العصور الوسطى: (الباكرة – الراقية – المتأخرة) ١٠

المبحث الأول

المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع ق٩-ق١٤م ٢٤

عصر الفروسية والإيمان والإقطاع والظلام- معركة أدريا نوبل ونشأة النظام الإقطاعي- نظرية الفريد العظيم ملك إنجلترا- أمراض الكنيسة- رقيق الأرض في العصر الوسيط

المبحث الثاني

ألمانيا في العصر الوسيط ٣٨

طبيعة ألمانيا الجغرافية – التكوين العرقي- العاصمة – الصراع بين الملوك والأمراء- أوتو الأول والبابا ليو الثالث- الصراع بين الملك الألماني والأمراء- الصراع بين الإمبراطور والبابا في روما

المبحث الثالث

برنامج الباباوات في السيادة الروحية على الكنيسة والسيطرة الزمنية على الدولة ٤٩

حركة الإصلاح الكلوني- جريجوري السابع – المراسيم البابوية- نظرية هبة قسطنطين- نظرية التخصيص- نظرية سمو الكرسي الروماني- نظرية الشمس والقمر

المبحث الرابع

التقليد العلماني الألماني فوق المائدة البابوية الإمبراطورية ٦٠

جريجوري السابع وهنري الرابع- إذلال كانوسا – رودلف السوابي وهنري الرابع – باسكال الثاني وهنري الخامس- اتفاقية وورمز

المبحث الخامس

الحقبة الهوهنشتاوفنية في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٧٠

لوثيود دوق ساكسونيا- كونراد الثالث- حادثة بيزانسون- فردريك بربروسا- هنري السادس- أنوسنت الثالث وفردريك الثاني- الصراع على العرش الألماني- الفكر السياسي البابوي- هونوريوس الثالث وفرديك الثاني- الكامل الأيوبي وفردريك الثاني

الملاحق ٨٣

المصادر والمراجع ٩٣

الإهداء

إلى تلك الابتسامة التي غابت عن الوجود

وسكنت في الوجدان إلى أستاذي المؤرخ

الدكتور رأفت عبد الحميد

رحمه الله

مُقَدِّمَة

العصور الوسطى فترة من تاريخ أوروبا الغربية تقع مابين العصور القديمة والعصور الحديثة. فقبل العصور الوسطى كانت أوروبا الغربية جزءًا من الإمبراطورية الرومانية، أما بعد انتهاء العصور الوسطى، فقد اشتملت أوروبا الغربية على ما عرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومملكتي إنجلترا وفرنسا وعلى عدد من الدول الصغرى. وقد عرفت العصور الوسطى أيضًا باسم فترة القرون الوسطى، كما يطلق عليها اسم العصور المظلمة. وتشير كلمة مظلمة إلى الغياب المفترض في حقل المعرفة خلال تلك الحقبة، لكننا الآن ندرك أن العصور الوسطى لم تكن مظلمة إظلامًا تامًا، وإن كانت تبدو كذلك لعلماء عصر النهضة المتقدم نسبيًا وللمؤرخين المتأخرين الذين تأثروا بهؤلاء العلماء فيما بعد.

امتدت العصور المظلمة في الفترة من حوالي القرن الخامس الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميلادي؛ حيث كان مستوى التعليم والثقافة خلالها في غاية الانحطاط، وكانت المعلومات الوثائقية حول تاريخ هذه الفترة قليلة ومتأثرة بالخرافات والأساطير.

ويمتد تاريخ العصور الوسطى من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى القرن السادس عشر الميلادي. ولا يعطي المؤرخون في الوقت الحاضر، تواريخ محددة عن نهاية الإمبراطورية الرومانية؛ لأن نهايتها كانت تدريجية وخلال فترة امتدت عدة مئات من السنين. ويعد القرن الخامس الميلادي بمثابة بداية لتاريخ العصور الوسطى، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية، في ذلك الوقت، ضعيفة جدًا، لدرجة أن القبائل الجرمانية كانت قادرة على فتحها. واتحد أسلوب الجرمان في الحياة مع أسلوب الرومان في الحياة، تدريجيًا، وشكلا الحضارة التي نطلق عليها اسم حضارة العصر الوسيط.

ومن ثم فإن هذه الصفحات تقدم للمهتمين بتاريخ العصور الوسطى قراءة لرحلة المجتمع الأوربي مع النظام الإقطاعي الذي ساد أوربا خلال الفترة من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر، حيث كانت القواعد العامة للنظام تكاد تكون واحدة، لكن عند تطبيقها في دول أوربا المختلفة، أفرخت في النهاية أنظمة تختلف عن بعضها كل الاختلاف.

فقد خرجت فرنسا من النظام الإقطاعي ملكية قوية، تمثلت في تعبير لـويس الرابـع عـشر "**أنا الدولة** "، بينما خرجت إنجلترا "ملكية مقيـدة"، الملـك فيهـا يملـك ولا يحكـم، علـى حـين خرجت ألمانيا من هذا النظام الإقطاعي دولة ممزقة بكل ما تعنيه الكلمة.

وقد ركزت صفحات الكتاب على الدور الـذي لعبتـه ألمانيـا في التـاريخ الأوربـي الوسـيط، متتبعة ذلك الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية،من خلال خمسة مباحث؛ تلقي الضوء على المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع، والدور الألماني في العصر الوسيط، وبرنامج الباباوات في الـسيادة الروحية على الكنيسة والـسيطرة الزمنيـة علـى الدولـة، بالإضـافة إلى مـشكلة التقليـد العلمـاني في ألمانيا، وصولاً للحقبة الهوهنشتاوفنية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وهكذا؛ تراكمت المادة التي جمعتها، فخرجت في شكل صفحات تهدف إلى الـذهاب وراء خلفية الأحداث وتحليلها، وجمع شتات الأفكار المتفرقة،" فكلما زادت قدرتنا على تذكر الماضي، زادت قدرتنا على استشراف المستقبل" كما قال السير ونستون تشرتشل.

وفي النهاية؛ أتقدم بخـالص الـشكر والتقـدير إلى **فريـق العمـل بـشركة الكتـاب العربـي الإلكتروني** (**لبنان**)، على جهودهم المبذولة في توزيع الكتب إلكترونياً، على موقع الشركة بـشبكة الإنترنت، بهذا الشكل اللائق والمنظم والمواكب لعصر تكنولوجيا المعلومات.

أسأل الله أن يتجاوز عما قصرت، ويغفر لي ما أذنبت، ويتقبل من ما وفقت فيه.

أشرف صالح محمد سيد
عضو الجمعية المصرية للدراسـات التاريخيـة
عضو الجمعية العربية للاستشارات والتدريب
عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب
عضو جمعية الإداريين العرب

جسر السويس – القاهرة
١٥ ربيع أول ١٤٢٩هـ
٢٣ مـــارس ٢٠٠٨م

المدخل

- العصور الوسطى الباكرة
- العصور الوسطى الراقية
- العصور الوسطى المتأخرة

يطلق اصطلاح العصور الوسطى على الفترة الزمنية التي تمتد من القرن الرابع الميلادي إلى القرن السادس عشر الميلادي .

بدايةً؛ نقرر أن التاريخ عبارة عن حلقة متصلة لا يمكن الفصل فيه، وإنما تم تجزئة التاريخ إلى فترات زمنية محددة حيث نقول التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث والتاريخ الحديث والمعاصر، والمقصود من هذا التقسيم التسهيل على الباحث و القارئ.

وقد اختلف الدارسون حول تحديد بداية العصور الوسطى ونهايتها، فبعضهم يرى أن بداية العصور الوسطى هي سنة ٤٧٦م وهو تاريخ سقوط "روما" بأيدي "البرابرة الجرمان"، والبعض يعتبر سنة ٣٣٠م وهو تاريخ بناء مدينة " القسطنطينية" هو بداية لهذه الحقبة، ويرى آخرون أن سنة ٣٩٥م بداية العصور الوسطى حيث انقسمت في هذا التاريخ الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي. وهناك أراء تحدد بداية العصور الوسطى مع انتشار " المسيحية"، والبعض الآخر يعتبر فترة "الغارات البربرية" و تشكل " الممالك الجرمانية " هو بداية العصور الوسطى.

أما أول من أطلق اصطلاح العصور الوسطى أو العصر الوسيط فهم " الأدباء الإنسانيون " الإيطاليون في القرنيين الخامس و السادس عشر الميلاديين، ولقد نظر الإنسانيون إلى الثقافة الكلاسيكية على أنها ثقافة جيدة جداً وأعجبوا بها ، بينما نظروا إلى الفترة الزمنية المحددة بسقوط "روما" وسقوط "القسطنطينية" على أنها فترة جهل وظلام مرت بها أوربا.

وفي الحقيقة؛ تم اعتبار القرنيين الرابع والخامس الميلاديين بداية العصور الوسطى لأسباب عدة منها السياسية؛ فقد كان في العالم قبل القرنيين الرابع والخامس يوجد إمبراطوريات كبرى مثل المصرية والآشورية والرومانية والمقدونية والفارسية. كما أن الإمبراطورية الرومانية غدت في أوج قوتها واتساعها وأصبح يحكمها الدستور وظهر فيها التعدد في عبادة الآلهة. واعتباراً من القرنيين الرابع والخامس فقد ظهرت ممالك متعددة مثل "القوط الغربيون" في "إسبانية" و "القوط الشرقيون" في "إيطالية" و"الفرنجة" في " فرنسا" و"الواندال" في " شمال أفريقية".

وقد ظهرت بعض الإمبراطوريات في تلك الفترة مثل "إمبراطورية شارلمان" لكن هذه الإمبراطورية كانت قوية من الناحية السياسية لكنها ضعيفة من الناحية الاقتصادية، كما أنها كانت مرتبطة بشخصية إمبراطورها، لذلك عندما مات " شارلمان" ضعفت هذه الإمبراطورية ثم سقطت.

أما من الناحية الاقتصادية و الاجتماعية؛ فقد كان ينتشر في الإمبراطورية الرومانية " نظام العبودية"، أما فيما بعد فقد تناقص عدد العبيد في القرنيين الرابع والخامس الميلاديين، وأصبحت " طبقة الكولون" هي الطبقة المنتجة الرئيسية ، وتدرجياً رسخت أسس النظام الإقطاعي، فأصبحت طبقة "الأقنان" هي الطبقة الرئيسية المنتجة، الأمر الذي أدى بالتالي إلى انتشار وسيادة النظام والعلاقات الإقطاعية بدلاً من النظام والعلاقات العبودية.

وفي الناحية الفكرية؛تميزت العصور القديمة بسيطرة الوثنية وعبادة الآلهة المتعددة، أما في القرنين الرابع والخامس ظهرت وانتشرت الديانة المسيحية القائمة على عبادة إله واحد بدلاً من الآلهة المتعددة، كما اعترف " قسطنطين الأول الكبير" بالمسيحية ديانة رسمية للدولة.

الواقع أن؛ البدايات تعود إلى الغزوات الجرمانية، فقد جاءت الشعوب الجرمانية من إسكندينافيا الواقعة في أوروبا الشمالية. وبدأت هذه الشعوب تتحرك نحو وسط أوروبا في حوالي سنة١٠٠٠ق. م. وفي حوالي القرن الثالث الميلادي احتل الجرمان أقاليم في حوضي نهري الراين والدانوب على طول الحدود الشمالية والشمالية الشرقية للإمبراطورية الرومانية. وتبنّى بعض الجرمان حضارة جيرانهم الرومان. كما تاجروا مع التجار الرومان، وتعلموا زراعة الأرض، واعتنقوا النصرانية ديانة لهم.

ولكن معظم الجرمان كانوا شعبًا فظًا وجاهلاً. وأطلق عليهم الرومان اسم الهمجيون"البرابرة" (أناس غير متحضرين). وعاش الجرمان على شكل قبائل يحكم كل منها زعيم. وقامت قوانينهم القليلة على أساس العادات والخرافات القبلية. كان مظهر رجال القبيلة يتسم بالعنف، حيث كانوا ضخام الجسم ويلبسون جلود الحيوانات أو الكتان الخشن. وكانوا يقاتلون بالرماح والتروس، وكانوا محاربين شجعانًا. عاش الجرمان، بصورة أساسية، على الصيد وعلى نمط متخلف للزراعة، وعبدوا آلهة الإسكندينافيين كأودين وثور، وكانت قلة قليلة منهم تستطيع القراءة أو الكتابة .

بدأت القبائل الجرمانية، خلال القرن الخامس الميلادي، بمهاجمة الأراضي الرومانية، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية آنذاك قد فقدت الكثير من قوتها الكبيرة، ولم يكن بمقدور جيوشها الدفاع عن حدودها الطويلة. فقد هاجم القوط الغربيون أسبانيا، في حوالي سنة ٤١٦م. وبدأ الأنجلز والجوت والسكسون في الاستيطان في بريطانيا نحو سنة ٤٥٠م. وأسس الفرانكيون

(الفرنجة) مملكة لهم في بلاد الغال (فرنسا الحالية) في ثمانينيات القرن الخامس الميلادي. وهاجم القوط الشرقيون إيطاليا في سنة٤٨٩م.

قسمت الغزوات البربرية الإمبراطورية الرومانية الهائلة إلى ممالك متعددة، كان البرابرة لايدينون بالولاء إلا لزعماء قبائلهم أو لأسرهم. واحتفظت كل قبيلة بقوانينها وتقاليدها الخاصة. وترتب على ذلك اختفاء الحكومات الرومانية القوية، المركزية منها والمحلية.

دمّرت الغزوات البربرية أيضًا معظم التجارة الأوروبية التي كان قد وضع أساسها الرومان. قلة من الناس هي التي استخدمت تلك الشبكة العظيمة من الطرق المعبدة بالحجارة التي كانت قد شجعت التجارة والاتصالات بين المدن المزدهرة في الإمبراطورية الرومانية. ولولا التجارة لأُبطِل استخدام النقد نهائيًا. وقد اضطر معظم الناس إلى كسب قوتهم من الزراعة.

وقسمت معظم أوروبا الغربية، في حوالي القرن التاسع الميلادي، إلى إقطاعيات كبيرة من الأرض كانت تسمّى الضياع. وحكم هذه الضياع قلة قليلة من ملاك الأرض الأثرياء، أطلق عليهم اسم ملاك الأرض أو السادة. ولكن معظم الشعب كان من الفلاحين الفقراء الذين عملوا في الأرض. وكانت كل قرية في ضيعة من الضياع تنتج كل شيء يحتاجه الناس تقريبًا. وكان يطلق على هذا النظام، في الحصول على قوت العيش مما تنتجه الأرض، اسم نظام الإقطاع الأوروبي.

كانت الكنيسة القوة الحضارية الرئيسية في العصور الوسطى المبكرة في أوروبا الغربية؛ فقد قدمت القيادة للشعب. وقامت تدريجيًا، بتنصير البرابرة. ومع أن أبناء أوروبا لم يعودوا يدينون بالولاء لحاكم واحد، إلا أنهم بدأوا تدريجيًا يتحدون تحت ظل الكنيسة. وسافر أناس، أطلق عليهم المنصرون، مسافات كبيرة لنشر النصرانية .كما ساعد هؤلاء المنصرون على تحضير البرابرة عن طريق إدخال الأفكار الرومانية المتعلقة بالحكم والعدالة في حياتهم .

وتولّى البابوات والأساقفة، وآخرون من كبار النصارى، وظائف حكومية عديدة، بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة. وجمعت الكنيسة الضرائب واحتفظت بالمحاكم التشريعية لمعاقبة المجرمين. هذا فضلاً عن أن المباني الكنسية كانت بمثابة مستشفيات للمرضى ونزل للمسافرين .

وأصبحت المؤسستان الكنسيتان ـ الكاتدرائية والدير ـ مركزين للتعليم في العصور الوسطى المبكرة .وكانت الكاتدرائيات كنائس للأساقفة، وكانت الأديرة لمجموعات من الناس، يطلق عليهم

اسم الرهبان، قد تخلوا عن الحياة الدنيا اعتقادًا بأنها الطريق لخدمة الله بالصلاة والعمل. وساعد رهبان بعض الأديرة ورجال الدين في الكاتدرائيات على استمرار القراءة والكتابة باللغة اللاتينية، وحافظوا على عدد كبير من المخطوطات القديمة النفيسة. كما أنهم قاموا بتشييد معظم المدارس في أوروبا.

أما بالنسبة للإمبراطورية الكارولنجية؛ فقد وحدت هذه الإمبراطورية في أواخر القرن الثامن الميلادي، معظم أوروبا الغربية تحت سلطان حاكم واحد. وكان الكارولنجيون أسرة من ملوك الفرانكيين (الفرنجة) حكمت منذ أواسط القرن الثامن الميلادي حتى سنة ٩٨٧م. وكان أعظم حكام الفرنجة أهمية هم شارل مارتل وابنه ببين وشارلمان بن ببين.

وحَّد شارل مارتل مملكة الفرانكيين في أوائل القرن الثامن الميلادي، وذلك عندما استولى على أراض كانت في قبضة سادة فرانكيين أقوياء. كما وطد ببين القصير سيطرة الكارولنجيين على المملكة الفرانكية. وفي سنة ٧٦٨ م أصبح شارلمان حاكمًا على المملكة. وفتح شارلمان معظم أوروبا الغربية، ووحد أوروبا لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

واعتمد الحكام الفرانكيين، في إقامة إمبراطوريتهم، على مساعدة النبلاء الموالين لهم، والذين كان يطلق عليهم اسم المقطعين التابعين .وكان النبيل يصبح مقطعًا تابعًا عندما يتعهد بالولاء للملك، ويقطع وعدًا على نفسه بالقيام على خدمته. وكان الملك يصبح بالتالي سيدًا على تابعه. وقد شغل معظم الأتباع مناصب مهمة في جيش الملك، وخدموا فرسانًا .كما كان لدى عدد كبير منهم فرسانهم الذين كانوا قد تعهدوا، بدورهم، بتقديم خدماتهم إلى الملك أيضًا.

وصلت العصور الوسطى المبكرة إلى أوجها خلال العهد الطويل لشارلمان. فقد عمل شارلمان على حماية الكنيسة من أعدائها، والحفاظ على وحدة الشعب الأوروبي في ظل الكنيسة. ومع أن شارلمان لم يتعلم الكتابة إطلاقًا إلا أنه أسهم، دون شك، في تحسين التعليم. فقد أسس مدرسة في قصره، في عاصمته آخن. وحشد فيها معلمين من أنحاء أوروبا كافة. ولقد نظم هؤلاء المعلمون المدارس والمكتبات، ونسخوا المخطوطات القديمة. وقد أدت هذه النشاطات إلى ظهور اهتمام جديد بالتعليم دعي باسم النهضة الكارولنجية.

واقع الأمر؛ لم تستمر إمبراطورية شارلمان والنهضة التعليمية طويلاً بعد موته. حيث قاتل أحفاده الثلاثة بعضهم بعضًا من أجل اللقب الإمبراطوري. وقسمت المعاهدة، التي وقعت في مدينة فردان سنة ٨٤٣ م الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام، بحيث نال كل حفيد قسمًا منها. وسرعان ما هاجم المسلمون والمجر والفايكنج الإمبراطورية المجزأة. وفي أواخر القرن التاسع الميلادي لم يعد للإمبراطورية الكارولنجية وجود.

الجدير بالذكر؛ أن حضارة العصور الوسطى بلغت أوجها في الفترة الواقعة مابين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر الميلادي. ويطلق على هذه الفترة اسم العصور الوسطى الراقية.

تمكن عدد من السادة الأكفاء، خلال القرن الحادي عشر الميلادي، من إقامة حكومات قوية وتوفير فترات من السلام والأمن، في ظل النظام الإقطاعي. ونتيجة لهذا فقد كان بإمكان الناس أن يكرسوا أنفسهم لأفكار ونشاطات جديدة .

الانتعاش الاقتصادي .تحسَّنت الظروف الاقتصادية بتحسن نظام الحكم؛ حيث أخذ التجار يرتحلون من جديد على الطرق البرية والمائية القديمة في أوروبا. ونشأت المدن على طول الطرق الرئيسية للتجارة. وبرزت معظم المدن الباكرة قرب القلعة المحصنَّة أو الكنيسة أو الدير. حيث كان بمقدور التجار حطّ الرحال قرب هذه الأماكن للحماية. واستقرّ في المدن تدريجيًا كل من التجار والحرفيين، الذين كانوا يصنعون السلع التي يبيعها هؤلاء التجار .

بدأ سكان أوروبا بالتزايد خلال القرن الحادي عشر الميلادي. وارتحل عدد كبير منهم إلى المدن بحثاً عن العمل. وبدأ الفلاحون، في الوقت نفسه، بمغادرة الضياع بحثًا عن حياة جديدة. وأصبح بعض هؤلاء الفلاحين تجارًا وحرفيين، في حين قام بعضهم الآخر بزراعة الأراضي الواقعة خارج المدن، وزودوا سكانها بالمواد الغذائية. وقد شجَّعت مدن العصور الوسطى التجارة، التي كانت قد برزت بشكل رئيسي نتيجة لنمو التجارة، فاشترى سكان المدن السلع، وأنتجوا سلعًا ليبيعها هؤلاء التجار بدورهم .

تعلّم الفلاحون أساليب تتعلق بالزراعة أفضل من قبل، وذلك بفضل اتصالهم بالمسلمين، وأنتجوا مواد غذائية بصورة متزايدة لمواجهة النمو السكاني. وبدأ الفلاحون في استخدام الطاقة

المائية لتدوير طواحين الحنطة ومناشر الخشب. فاستصلحوا أراضي للزراعة، بقطع الغابات وتجفيف المستنقعات.

أخذ الأوروبيون، ولأول مرة منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، يهتمون بالعالم الواقع خلف حدودهم. فقد ارتحل التجار بعيدًا للمتاجرة مع شعوب الإمبراطورية البيزنطية في جنوب شرقي أوروبا. كما شجّعت الحروب الصليبية التجارة الأوروبية مع الشرق الأوسط.

وبنى الإيطاليون، في كل من جنوه وبيزا والبندقية وغيرها من المدن، أساطيل ضخمة من السفن لحمل سلع التجار، عبر البحر المتوسط، إلى المراكز التجارية في كل من أسبانيا وشمالي إفريقيا. وكان الإيطاليون يجلبون معهم ـ بالمقابل ـ سلعًا من تلك الموانئ البحرية. كما كانت تصدر سلع كثيرة من مدن في كل من الهند والصين. وقد شكل زعماء في مدن شمالي ألمانيا العصبة الهنزية لتنظيم التجارة في أوروبا الشمالية .

وتبادل التجار سلعهم، في السوق التجارية الدولية الكبرى، التي كانت تقام في المدن الواقعة على طول الطرق التجارية الأوروبية الرئيسية. وكانت كل سوق تقام في وقت مختلف عن الآخر من كل سنة. وكان التجار يرتحلون من معرض إلى آخر. لقد أصبحت مقاطعة شمبانيا، الواقعة في الشمال الشرقي من فرنسا، مكانًا لأولى الأسواق الأوروبية الكبرى، فمدن شمبانيا تقع على الطرق التجارية التي تربط إيطاليا بأوروبا الشمالية. جلب التجار الفلمنكيون الأقمشة الصوفية إلى هذه المعارض. وجلب التجار الإيطاليون الحرير والتوابل والعطور من الشرق الأوسط والهند والصين. كما جلب تجار من أوروبا الشمالية والشرقية الفراء والخشب والأحجار الكريمة. لم يقتصر نشاط التجار على نقل سلعهم فحسب، وإنما تبادلوا أيضًا الأفكار حول الطرائق الجديدة المتعلقة بالزراعة والصناعات الحديثة والأحداث، التي تقع في أوروبا وبقية العالم .

أما بالنسبة لمدن العصور الوسطى؛ فكانت المدن الأولى مجرد مستوطنات صغيرة تقع خارج أسوار قلعة أو كنيسة. وعلى اعتبار أن المدن الصغيرة قد نمت، وأصبحت كبيرة، فقد تم بناء الأسوار حولها. وقام الجنود على الأسوار بالسهر على مراقبة الجيوش المغيرة .وسرعان ما ازدحمت المدن؛ لأن الأسوار حددت مساحة الأرض المتاحة للسكن. وانتصبت المباني متجاورة

بصورة مكتظة. واضطر السكان أن يبنوا بيوتهم في طوابق، نظرًا لأن الأرض كانت باهظة الثمن. وكان العديد من المباني مؤلفة من خمسة أو ستة أدوار.

صورة (١)

تشييد جدار حجري في القرون الوسطى كان يتطلب براعة هندسية فائقة. تظهر الصورة العمال وهم يقطعون الحجارة في شكل مربعات ويحملونها إلى الرافعة. يقوم رجل بالمشي على عتبات سلم متحرك، وآخر يحمل الخرسانة متسلقًا سلمًا لإيصالها للعامل الذي يثبت الحجارة في مكانها .

كانت الشوارع ضيقة ومتعرِّجة ومظلمة وقذرة، كما أنها لم تكن، حتى القرن الثالث عشر الميلادي، قد رصفت بعد. وكان السكان يرمون كل نفاياتهم وقماماتهم في الشوارع، وانتشرت الأمراض بسرعة. وبدأ السكان في بعض المدن خلال القرن الثالث عشر الميلادي برصف شوارعهم بحصى خشن. كما اتخذوا بعض الخطوات التي استهدفت زيادة الاهتمام بالصحة العامة.

كان المواطن الذي يخرج خلال الليل يصطحب معه خدمه لحمايته من اللصوص، وكان يحمل هؤلاء الفوانيس والمشاعل لانعدام الإضاءة في شوارع المدينة كلها. إن الاستخدام الواسع للفوانيس والمشاعل والشموع جعل الحريق واحدًا من أكبر الأخطار التي تهدد المدينة في العصور الوسطى. وإذا كان المواطنون الأثرياء يملكون بيوتًا من الحجارة والقرميد، إلا أن معظم البيوت كانت مصنوعة من الخشب، وكان من الممكن بالنسبة إلى حريق هائل أن يمسح مدينة بأكملها من الوجود، فمدينة رون بفرنسا احترقت جميعها ست مرات ما بين ١٢٠٠م و ١٢٢٥م .

(١) صورة (١) نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية

بعد أن استقر التجـار والحرفيـون في المـدن قـاموا بتأسـيس تنظيمـات أطلـق عليهـا اسـم النقابات .وقد حمت النقابة أعضاءها من الممارسات الجائرة التي يتعرضون لها في عملـهم. وثبتـت الأسعار والأجور، وسوت المنازعات بين العمال وأرباب العمل .

وقد أدت النقابات دورًا مهمًا في إدارة المدينة، فعندما تم تنظـيم أولى النقابـات لم يكـن في المدن سوى قوانين قليلة لحماية التجار والحرفيين. وكان السيد ـ الـذي يملـك الأرض الـتي قامـت عليها المدينة ـ يقوم بـسن القـوانين وفرضـها علـى الـسكان. وعنـدما كـان سـكان المدينـة يظفـرون بالسلطة، فإنهم كانوا يطالبون بحق حكم أنفسهم بأنفـسهم. وكانـت النقابـة، في حـالات كـثيرة، تجبر السيد على منح الشعب براءة تمنحه بعض حقـوق الحكـم الـذاتي. وقـادت النقابـات نـضال سكان المدن من أجل الحكم الذاتي، وأسهم أعضاؤها، في كـثير مـن الأحيـان، بـإدارة الحكومـات الجديدة للمدينة.

أدى الانتعاش الاقتصادي إلى تغيرات كثيرة تتعلق بالتنظيم الاجتماعي والسياسي لأوروبا؛ فقد عادت الأموال للاستخدام مع نمو التجارة والصناعة ونـشوء المـدن والحـروب الـصليبية. وأخـذ النظام الإقطاعي في الاضمحلال بسبب قلة اعتماد الناس على الأرض .وفرّ عدد كبير من الفلاحـين من الضياع إلى المدن. كما اشترى فلاحون آخرون حريتهم بالمال الذي جمعوه ببيـع المـواد الغذائيـة لسكان المدن. وشجّع سادة بعض المدن المستوطنين الجدد للقدوم إلى مدنهم. كما منح عدد كبير مـن السادة الحرية للفلاحين الذين استقروا في مدنهم.

بدأ النظام الإقطاعي الذي تأسس على مبدأ نظام الـضيعة في الاضـمحلال أيـضًا. وأصـبح بمقدور السادة الحاكمين دفع الأمـوال للحـصول علـى الخدمـة العـسكرية والـسياسية بـدلاً مـن أن يمنحـوا الإقطاعـات؛ حيـث مكنـتهم ثـروتهم مـن دفـع أجـور أفـضل للجنـد والمـوظفين الـذين يـستأجرونهم. وقـد حـصل الـسادة بالمقابـل علـى خـدمات أفـضل. وبالتـالي غـدا هـؤلاء الـسادة وحكوماتهم أكثر قوة.

كرّس التعلـيم والفنـون، خـلال العـصور الوسـطى الراقيـة، لتمجيـد الإلـه وتعزيـز سـلطة الكنيسة. وعكست الأفكار والإنجازات الفنية، في الفترة مابين سنة ١١٠٠ و١٣٠٠م تأثير الكنيسة .

أسهم كل الأمراء والعمال على السواء بالأموال لبناء الكاتدرائيات الحجرية التي شمخت فوق مدن العصور الوسطى .وقد صورت النوافذ الزجاجية الملونة، والأشكال المنحوتة التي زخرفت الكاتدرائيات، أحداثًا مما ظن أنه من حياة السيد المسيح، فضلاً عن قصص أخرى مستمدة من نسخة الإنجيل التي بين أيديهم. ولا تزال الكاتدرائيات الموجودة حاليًا في المدن الفرنسية، مثل تشارتر وريمس وأميان وباريس، تذكر بإيمان شعوب العصور الوسطى بالنصرانية.

صورة (٢)

في العصور الوسطى كانوا يزينون الكاتدرائيات بزجاج النوافذ الملون الذي تعلموا صناعته من المسلمين.

وأعاد الاحتكاك المتزايد مع الحضارتين الإسلامية والبيزنطية قدرًا كبيرًا من المعرفة، التي كانت قد فقدتها أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية؛ فقد ترجم بعض العلماء كتابات عربية وإغريقية إلى اللغة اللاتينية ودرسوا معانيها. وغدا الكثير من العلماء على دراية بمؤلفات الفيلسوف الإغريقي أرسطو بفضل شروح الفيلسوف العربي ابن رشد وغيره من العلماء العرب والمسلمين. وتناقش العلماء فيما إذا كانت تعاليم أرسطو تعارض تعاليم الكنيسة. وقد ظهر من جراء مناقشات هؤلاء العلماء وكتاباتهم ميدان فكري أطلق عليه اسم المدرسية.وكان من بين كبار الأساتذة والكتاب في هذه الفترة كل من بيتر أبيلارد، وألبرت الكبير، وتوما الأكويني.

احتشد الطلاب في الكاتدرائيات، حيث كان يحاضر هؤلاء العلماء. وشكل الطلاب والعلماء تنظيمات دعيت بالجامعات .وكانت تشبه نقابات الحرفيين. وتخرج في هذه الجامعات رجال قاموا بخدمة الكنيسة والدول الجديدة وممارسة القضاء والطب وكتابة الأدب والتعليم .

(٢) صورة (٢) نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية

أما نقطة النهاية في تاريخ العصور الوسطى؛ فكان لها نصيب من الاختلاف أيضاً، فيحددها البعض بسنة ١٤٥٣م وهو تاريخ سقوط بيزنطة بأيدي الأتراك العثمانيين.وهناك من يرى أن نهاية العصور الوسطى سنة ١٤٩٢م وهو تاريخ اكتشاف"أمريكا"، ومن يحدد نهاية العصور الوسطى في " النهضة الثقافية" في أواخر القرن الخامس عشر و أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

والجدير بالإشارة؛ أنه تم اعتبار القرنيين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين نهاية العصور الوسطى لحدوث تطورات مختلفة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. فعلى الجانب السياسي؛ في سنة ١٤٥٣م فتح العثمانيون الأتراك " القسطنطينية" عاصمة الدولة البيزنطية ، كما توقفت " حرب المائة عام " بين " فرنسا" و"إنجلترا"، كما انضمت " بروسيا الغربية " إلى " بولونيا " سنة ١٤٦٦م ، كما تحررت " روسيا" من الاستعمار المغولي سنة ١٤٨٠م ، كما خرجت "الأندلس" و إسبانية من أيدي العرب المسلمين سنة ١٤٩٢م، كما تم اكتشاف أمريكا في نفس السنة، كما بدأت حركة إصلاحية في " ألمانية"، ونهضة ثقافية في " إيطالية "، وبالتالي تشكلت دول قومية في أوربة ، وحلت فكرة التعدد محل فكرة الوحدة.

أما بالنسبة للجانب الاقتصادي و الاجتماعي؛ فقد انقلب الاقتصاد الزراعي المغلق السائد في العصور الوسطى إلى اقتصاد صناعي – تجاري منفتح ينزع إلى الرأسمالية و المبادلة الدولية، و بالتالي أطاحت القوى الإقطاعية بالقوى البرجوازية وحلت محلها في استغلال الطبقات الكادحة.

وبإلقاء نظرةً على الجانب الفكري؛ نجد أن المفاهيم الدينية المألوفة في العصور الوسطى أخذت في التغير، كما تحررت العقلية الأوربية من سيطرة الدين، كما دحرت الكنيسة أمام الفكر العلماني في النواحي كافة، كما قامت الحكة الإنسانية ببعث الثقافة الكلاسيكية (اليونانية و الرومانية)، كما بدأت آلات الطباعة تنشر الأفكار التقدمية.

واقع الأمر؛ أن أوروبا العصور الوسطى فسحت تدريجيًا الطريق لظهور أوروبا الحديثة، وذلك مابين١٣٠٠و١٥٠٠م. وتداخلت العصور الوسطى، خلال هذه الفترة، مع فترة من التاريخ الأوروبي المعروفة بعصر النهضة.

وعلى الرغم من؛ التقدم الذي حدث في ميدان الفن والتعليم، إلا أن هناك حقولاً أخرى في حضارة العصور الوسطى، ظلت على حالها أو تراجعت. لقد تقدمت أوروبا إلى الأمام اقتصاديًا واجتماعيًا دون انقطاع، تقريبًا خلال العصور الوسطى الراقية؛ حيث استمر السكان في التزايد بشكل ثابت، وتحسنت الظروف الاجتماعية، وتوسعت الصناعة والتجارة توسعًا كبيرًا. ولكن هذه التطورات انتهت جميعها في القرن الرابع عشر الميلادي؛ حيث تناقص عدد السكان، وساد التذمر أوساط الشعب، وانكمشت الصناعة والتجارة.

فقد أدت الحروب والكوارث الطبيعية دورًا كبيرًا في توقف التقدم الأوروبي؛ فقد اندلعت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، التي استمرت منذ عام ١٣٣٧م حتى عام ١٤٥٣م .وأعاقت هذه الحرب التجارة واستنفدت اقتصاديات الأمتين. كما أدى تحلل النظام الإقطاعي ونظام الإقطاع الأوروبي إلى حروب أهلية في شتى أرجاء أوروبا تقريبًا. وقام الفلاحون بثورات دموية للحصول على الحرية من السادة، كما قاتل العمال في المدن التجار الأثرياء الذين أبقوهم فقراء بلا حول ولا قوة.

وزاد في شقاء الناس ما عرف بالموت الأسود الذي أودى بحياة ربع سكان أوروبا – تقريبًا– مابين سنة ١٣٤٧ وسنة ١٣٥٠م. والموت الأسود هو شكل من أشكال الطاعون وواحدًا من أسوأ الأوبئة، كما جلبت سنوات القحط القاسية والفيضانات الموت والمرض والمجاعة .

أما بالنسبة لتطور السلطات الملكية؛ فقد أضعف انهيار النظام الإقطاعي في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٠٠ وما بعدها) النبلاء الإقطاعيين إلى حد بعيد، وفي الوقت نفسه فإن الازدهار الاقتصادي قد أثرى الملوك، وبمساعدة الجيوش المؤجرة فرض الملوك سلطاتهم على النبلاء. أما المشاة الملكية التي سُلِّحت حديثًا بأقواس طويلة، وبرماح كانت تسمى بايكس وبالمدافع، فإنها استطاعت أن تهزم جيوش الفرسان الإقطاعيين.

وفي الوقت نفسه؛ فإن الملوك زادوا كثيرًا من قوتهم وذلك عن طريق كسبهم لمساندة الطبقة الوسطى في المدن، فقد وافق سكان المدن على مؤازرة الملك وذلك بدفع ضرائب مقابل الحصول على أمن وسلام وحكومة جيدة، وكان من نتيجة هذه التطورات أن ولدت أوروبا الحديثة.

أما بالنسبة إلى الكنيسة؛ فقد تنامت سلطة البابوات مع تنامي سلطة الملوك، الأمر الذي أدى إلى ظهور نزاعات مريرة بين حكام الكنيسة وحكام الدولة. وأدى رجال الكنيسة دورًا متزايدًا في الشؤون السياسية، وكثر تدخل الملوك في شؤون الكنيسة. وكان البابوات يتنازلون أحيانًا عن استقلالهم ويستسلمون للملوك. وقد حدث هذا بخاصة مابين سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٧٧م؛ وذلك عندما حكم البابوات الكنيسة من مدينة أفينيون بفرنسا. وبعد أن عاد البابوات إلى روما تمزقت الكنيسة بسبب المنازعات الدائرة حول انتخاب البابوات؛ حيث ادعى اثنان، وفي بعض الأحيان ثلاثة، اللقب البابوي. وألحقت مثل هذه المنازعات الضرر بنفوذ الكنيسة، كما أدت إلى توجيه النقد لشؤون الكنيسة والتعاليم الكنسية. وضعفت الوحدة الدينية لأوروبا الغربية، وقادت إلى الإصلاح الكنسي الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي.

صورة (٣)

كنيسة سان مايكل

(منظر خارجي)

وتجد الإشارة إلى؛ ظهور النزعة الإنسانية، حيث كان العلماء والفنانون خلال العصور الوسطى المتأخرة أقل اهتمامًا بالفكر الديني، وتركز اهتمامهم أكثر على فهم الناس والعالم .وقد أطلق على وجهة النظر الجديدة هذه اسم النزعة الإنسانية .وكان علماء الإغريق والرومان القدامى وفنانوهم قد ركزوا على الدراسات الإنسانية. أما علماء العصور الوسطى المتأخرة وفنانوها، فقد أعادوا اكتشاف المؤلفات القديمة واستوحوا منها إلهامًا .وبدأ المعماريون في تصميم أبنية غير دينية أكثر من تصميم الكاتدرائيات. وبدأ الرسامون والنحاتون بتمجيد الإنسان والطبيعة في أعمالهم. وكانت دراسة أعمال المؤلفين الذين عاشوا في العصور السابقة للنصرانية مدعاة لبهجة العلماء. وخلال العصور الوسطى المتأخرة تزايد عدد كتاب الشعر والنثر لا باللغة اللاتينية، وإنما باللغات

(٣) صورة (٣) نقلاً عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

المحلية، بما في ذلك الفرنسية والإيطالية. وقد فتح هذا الاستخدام المتزايد للغات المحلية عصرًا أدبيًا جديدًا وقدم تدريجيًا التعليم والأدب إلى عامة الشعب.

في الحقيقة؛ لقد تأثرت أوروبا تدريجيًا بالمتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي حدثت في العصور الوسطى المتأخرة، ومع أوائل القرن السادس عشر الميلادي لم يعد هناك عصر وسيط، لكن ثقافة العصور الوسطى ومؤسساتها ظلت تؤثر في التاريخ الأوروبي الحديث.

المبحث الأول

المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع

ق٩م - ق١٤م

" الله خلق العالم علي شكل مثلث، ضلع يحكم وضلع يصلي وضلع يخدم الضلعين الآخرين "

ألفريد العظيم

في هذه الحقبة – العصر الوسيط – والتي امتدت أكثر من ألف عام نحن بصدد دراسة فكر ونظم حضارية والكنيسة وعلاقاتها وكيف كان يفكر الناس، فذلك العصر هو عصر الفروسية والإيمان والإقطاع والظلام أيضاً.

الواقع أنه بوفاة الإمبراطور ثيودوسيوس في عام ٣٩٥م قُسمت الإمبراطورية بين ولديه إلي قسمين قسم شرقي (الإمبراطورية الرومانية الشرقية)، وقسم غربي (الإمبراطورية البيزنطية)، وأصبح هناك إمبراطور في روما ولكنه كان يمكث في رفانا وإمبراطور آخر في القسطنطينية. وقد سميت الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية اليونانية تحقيراً لها حيث أن الرومان هم الحضارة في الغرب وفي نظرهم الشرق متخلف ومُحتقر ولا يستهوى الغرب أن تكون العظمة شرقية. وندرك ذلك الأمر من رسالة في القرن الثاني عشر كتبها الإمبراطور فر يدريك بربا روسا الأول وبعث بها إلى مانويل الإمبراطور البيزنطي في الشرق يقول له: " أنت ومملكتك اليونانية جزء من إمبراطوريتي الغربية " .ويتضح أن المتكلم هنا في الأصل جرماني ويصف نفسه أنه روماني ولكن هو جرماني بربري والعجيب في الأمر أن يصف الإمبراطور الروماني في الأصل بأنه يوناني، وهذا تحقير للإمبراطورية الشرقية الرومانية في الشرق.

الجدير بالذكر؛أن البلاط البيزنطي الراقي نَقل للغرب الكثير فإن كان فريدريك قال ما قاله لكنه كان يقلد الحضارة الشرقية بإطلاقه لحيته التي عُرف بها" ذو اللحية الحمراء". فالإمبراطورية البيزنطية الشرقية كان لها نظام مركزي "حكومة مركزية" وجهاز بيروقراطي ضخم وهذا كان سر وجود بيزنطة ألف عام ومائة سنة فهناك جهاز إداري " نظام إداري مستقر". أما الغرب فقد خلا من هذه الناحية — في معظمه — فآفة العصور الوسطي في أوربا هي الولاء للسيد المباشر، فالفلاح ولائه يكون لشيخ القرية والعمدة ولائه للمحافظ والأخير ولائه لرئيس الإقليم ورئيس الإقليم ولائه للملك، علي الرغم من أنه كان لابد أن يكون الولاء المباشر من الفلاح للملك. هذا الولاء المتغير ليس له أي رمز ينصرف إليه مباشرة وذلك يعني عدم استقرار فليس هناك خط ثابت، ولكن ذلك عصر ليس كل ما فيه سيئ فهذا العصر يعرف بالأتي:

عصر الفروسية: بكل معانيها ، فلم يكن عصر الإيجو (زمن الأنا) أي الأنانية بل عصر النبيل الأصيل، فقد كانت القوة الضاربة في الجيش هي قوة الفرسان لكن في نفس الوقت الفارس

هو المدافع عن حقوق الضعفاء والمظلومين، وكما لم يمنع ذلك أن يكون هناك فرسان في منتهى الظلم فكلاهما وجهان لعملة واحدة.

عصر الإيمان :وليس معني ذلك الانقطاع للعبادة بل كانت فكرة الدين مسيطرة علي عقول الناس وأيضاً تصرفاتهم فلا هناك تفكير غير تفكير الكنيسة فلا يتصدي أحد إلي تفسير الكتاب المقدس غير رجل الدين فهو المسموح له فقط بالتفسير ووعظ الناس، فلا حق لعلماني أن يجلس مجلس الواعظين. وقد استغلت الكنيسة هذا النفوذ أو بالأحرى استغلت ذلك لتحقيق نفوذها، فاستخدمت سلاح رهيب في يديها هو سلاح الحِرمان الكنسي فمن يُحرم من رحَمة الكنيسة فقد خَسر الدنيا والآخرة، فالفقراء والعامة كانوا يعيشون الجحيم في الدنيا على أمل الحصول علي جنة الآخرة فلم يكن فيهم أحداً يعصى أمراً للكنيسة حتى لا يخسر الآخرة فلابد من إطاعة الكنيسة إطاعة كاملة.

أما الحِرمان بالنسبة للملوك؛ فقد كان غير ذات أهمية فالملك ينعم بكل ما يريد والحرمان له يعني تجريده من سلطته الملكية ولكن الكنيسة لا تملك قرار العزل فكانت تجرده من الرحمة، ولكن كان هناك ما أخطر من ذلك وهو قرار أعلى من الحرمان وهو قرار " اللعنة " أو إرداف الحرمان باللعنة فذلك القرار كان بمثابة إيعاز للناس بخلع الملك حتى لا يكونوا ملعونين بلعنة الملك، فلهذا كان سلطان الكنيسة بلا حدود . ونذكر هنا فيليب الأول ملك فرنسا كانت تصدر ضده قرارات حرمان كل يوم ولكنه كان يفعل ما يريد ولا يؤثر ذلك فيه، أما ثيودوسيوس الأول الذي جعل المسيحية دين أول وحول الإمبراطورية لإمبراطورية مسيحية فحينما عصى أسقف ميلانو جعله الأسقف يمشي حافي الأرجل عاري الرأس، أي تاركاً التاج والصندل الإمبراطوري الذي يلبسه الإمبراطور. وبمعني آخر أن الأسقف جرده من ملكيته (الأشعرة الإمبراطورية) وجعله يمشي من قصره إلي الكنيسة مسافة ميل والناس تراه، وعند باب الكنيسة يستأذنه ليدخل ليغفر له ولا يسمح الأسقف له بالدخول، هذا علي الرغم من أن ذلك هو ثيودسيوس الأول الذي جعل المسيحية دين أول رسمي وكانت الكنيسة قد خلعت عليه هذا اللقب لذلك (ثيودسيوس العظيم) ولكنه قَبَل هذه الإهانة من داخله. فكانت الكنيسة بذلك تتمتع بالسيادة علي نفوس الناس، وعلي الرغم من أنه عصر الإيمان إلا أنه كانت هناك العربدة والرذيلة وشرب الخمر فكلاهما موجود.

عصر الإقطاع: وهو النظام الاقتصادي والسياسي في أوربا طوال تلك الفترة وظل سائداً لمدة طويلة من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وكان نتيجة طبيعية لانهيار الإمبراطورية الرومانية وهو نظام سياسي في جوهره، فمن يملك الأرض هو الحاكم، والقوة الاقتصادية الضاربة في تلك الفترة هم أصحاب النفوذ والسلطان وهم ملاك الأراضي.

عصر الظلام[1]: والذي أطلق هذه التسمية هم الأوربيون أنفسهم ففي عام ١٢٦٨م تم إعدام الإمبراطور كونرادينو آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية ومنذ هذا التاريخ حتى عام ١٥١٩م عندما علق مارتن لوثر احتجاجاته علي باب كنيسة وتنبرج هذه الفترة هي التي أطلق عليها الأوربيون عصر الظلام. فعندما أُعدم الإمبراطور أصبح السيد الأول والسلطة المطلقة كلها هي البابوية (في يد البابا) فأصبحت البابوية تعربد في أوربا سياسياً واجتماعيا واقتصاديا عربدة كاملة حتى أنها كانت تتدخل في أخص خصائص الناس. وهنا نذكر أن الكنيسة كانت تقول بأن الأرض مركز الكون والشمس تدور حولها وعندما عارض ذلك (جالليو) أُعتبر زنديق وهرطوق. فقد حجرت الكنيسة علي الفكر الإنساني في البحوث العلمية والتصرفات الشخصية، فالبابوية تحكم علي ملك المجر أن يطلق زوجته برغبة الكنيسة، فلم يكن مسموح لأي إنسان أن يفعل أي شيء سوي برغبة

---

(١)العُصور المُظْلِمة اصطلاح تاريخي يُطلق على وصف فترة من فترات العصور الوسطى في أوروبا. وتشير كلمة مظلمة إلى الغياب المفترض في حقل المعرفة خلال تلك الحقبة، لكننا الآن ندرك أن العصور الوسطى لم تكن مظلمة إظلامًا تامًا. وإن كانت تبدو كذلك لعلماء عصر النهضة المتقدم نسبيًا وللمؤرخين المتأخرين الذين تأثروا بهؤلاء العلماء فيما بعد. وكانت القرون الأولى من العصور الوسطى، خاصة من القرن الخامس إلى أواخر القرن العاشر الميلاديين أقرب إلى أن تكون مظلمة، حيث أصيبت حضارة غربي أوروبا بالانحطاط، ولم يتبق من معرفة الرومان القدامى سوى ما بقي في قلة قليلة من مدارس الأديرة والكاتدرائيات والبلاط. أما المعرفة التي نُقلت عن اليونانيين فقد اندثرت تقريبًا .وكان الذين تلقوا علمًا فئة قليلة من الناس، كما ضاع الكثير من المهارات الفنية والتقنية القديمة. وأمسى الكُتّاب، في جهالتهم، يتقبلون الحكايات الشعبية والشائعات على أنها حقيقة.

وفي مقابل الظلام الذي خيَّم على غرب أوروبا، كانت الحياة أكثر إشراقًا في جهات أخرى، فقد كان المسلمون في نفس الوقت يعيشون ثراءً حضاريًا وثقافيًا وارتقوا في كل المجالات العلمية كالطب والهندسة والبصريات والرياضيات والفلك ... إلخ. ثم إن هذه العلوم انتقلت من أسبانيا إلى الغرب فيما بعد وامتد نور العلم العربي الإسلامي من الصين شرقًا حتى حدود أوروبا غربًا. وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي، بدأت الحياة الاقتصادية والسياسية تنتعش في أوروبا. وقد أدى الانتعاش إلى تطور ثقافي هائل خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

الكنيسة. وعلماء الإنسانيات جعلوا القرنين (١٥م)،(١٦م) تلك الفترة هي عصر الظلام وتم تعميمها لتكن من ق٤م حتى ق ١٥م،وتلك مدة طويلة فالحكم صحيح والتعميم خطأ، فالقرن التاسع هو النهضة الشارلمانية وفي القرنين (١١م)،(١٢م) نشأت الجامعات والمدارس فكيف يكون ذلك ظلام. وخلاصة القول؛ أن الذي أُطلق خلال القرنيين الخامس عشر والسادس عشر التسمية بعصر الظلام لا يعمم ذلك علي القرون ٩م، ١١م ، ١٢م.

ولكن كيف نشأ النظام الإقطاعي ولماذا؟ إن الإجابة تكمن في معركة حدثت في القرن الرابع سنة ٣٧٨م هي معركة أدريا نوبل بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية،حيث قُتل فالنز الإمبراطور الروماني في الغرب وذُبح ٤٥ ألف جندي روماني وقيل ٧٨٥ ألف جندي، وسيطر الجرمان علي مقاليد الغرب الأوربي،واحتل الوندال أفريقيا وجنوب أسبانيا،والفرنجة غالة،والسكسون بريطانيا، والقوط الشرقيين في إيطاليا،والقوط الغربيين في أسبانيا والأندلس.

وهكذا؛ توزعت الإمبراطورية الغربية فأصبحت ذات طابع معين ولكن النتائج الأبعد للمعارك الفاصلة ونتائجها البعيدة تغير الزمن فأدريا نوبل غيرت حركة التاريخ، فأصبحت القوة في العصور الوسطي قوة الخيالة الفرسان، ذلك أن الجرمان كانوا فرسان والرومان مشاة، فالفرسان هم الأمراء أصحاب القوة الضاربة فأصبح لهم السلطان والنفوذ والملك لا يكون جيشه بدونهم. أما الجرمان قبل أدريا نوبل فقد عرفوا الزراعة البسيطة، والإمبراطورية الرومانية مَدنية تقوم علي التجارة، والعملة الاقتصادية الرومانية هي العملة الرئيسية، والجرمان فلاحين والزراعة أصبحت عصب الحياة الاقتصادية في العصر الوسيط فسكن الجرمان القرية فأصبحت عصب الحياة فهم لا يستطيعوا السكني في المدينة فتركوها وسكنوا القرية، والأمراء كانوا يملكون الأرض فأصبحوا ذو قوة اقتصادية وعسكرية في نفس الوقت، فالفلاحين هزموا المدنيين وهذا تحول حضاري وليس معركة عادية.

والجدير بالإشارة؛ أن الملك لابد أن يملك خزانة قوية (قوة اقتصادية) وجيش (قوة عسكرية) ولذا كان الأمير صاحب السلطة المطلقة في العصر الوسيط، فمن بعد أدريا نوبل أصبح الإمبراطور في النصف الشرقي وفي الغرب في رفانا بدلاً من روما، ولم يكن لدي الإمبراطور قوة عسكرية في مواجهة القوي الجرمانية والأعداء ولذلك عَهد الإمبراطور لشخص قوي يدافع عن الحدود في مقابل أن تصبح هذه الأرض في تلك المنطقة ملكاً أو هبة له ويجند بريعها مَن يدافعون

عنها (عن الأرض)، وقد توارث الأبناء عن الآباء تلك الأرض وعُرف ذلك بالنظام الإقطاعي أي تصبح إقطاعية.فالإقطاع يعني أن الملك يُقطع للأمير أو أي شخصية معينة تقدم خدمة جليلة له قطعة من الأرض كمكافأة ومن هنا كان عصر الإقطاع في أوربا، ومع ذلك؛ فهذا الأمر جاء في وقت كان الملك فيه لم يعد يملك سوي أرض مثل الأمراء أو أقل منهم.

والجدير بالذكر؛ أنه في القرن التاسع كان هناك ملك هو ملك إنجلترا الفريد العظيم قال:

" الله **خلق العالم علي شكل مثلث ، ضلع يحكم وضلع يصلي وضلع يخدم الضلعين الآخرين** ".

والضلعين الذي يحكم ويصلي لهما السيادة وهما الضلعان القائمان، أما الضلع الأفقي فهو الذي يخدم الآخرين، فالقائم له السيادة والأدنى هو العامة، فالذي يحكم هم الأمراء والذي يصلي هم رجال الدين والكنيسة والذي يخدم هم الفلاحون. ويطرأ هنا السؤال أين الملك ؟ فتلك تضم الأمراء ورجال الدين والفلاحون ومعني ذلك أن الأرض هي عصب الحياة في تلك الفترة، فالنظام في نظر الفريد له قداسته ولا يمكن أن يتخطاه أحد لأن الله هو الذي خلقه فهو ذو قداسة خاصة. لقد استمر ذلك لمدة خمس قرون كاملة في أوربا حتى ظهرت مفاهيم جديدة، والواضح هنا أن الملك لم يذكره الفريد في هذا المثلث ولكنه كان علي عرش المثلث ولكن السلطة كلها للأمراء ورجال الدين.

شكل (١)

نظرية ألفريد العظيم ملك إنجلترا ق ٩م[٢]

(٢) من إعداد المؤلف

الضلع الذي يحكم – الأمراء

الواقع أن الأرض كانت تُعطى هبة موقوتة ممكن أن يورثها الأبناء فهي تُعطى لفترة زمنية ولا تورث إلا بإرادة الملك، فالملك يستطيع أن يستردها فمن يهب يستطيع أن يسلب الأرض وذلك إذا أخل الدفاع عناها بالشروط . والشخص الذي وهبت له الهبة له حق الإنتفاع بها (الأمير — المقطَع) ويكون حق الملكية لـ (الملك — المُقطع). والنظام الإقطاعي الحقيقي يقوم علي الهبة الموقوتة ثم أصبح هبة موروثة، فتحولت من هبة موقوتةBeneficium إلي هبة موروثةFeudum فأصبح القرن (١١م) و (١٢م) إقطاعاً بمعني الكلمة.

وكان الملك هو صاحب السلطة المطلقة علي الأرض وهو الذي يُقطع الأمير دوقية (تقابل محافظة في الوقت الحالي) وبعد موت الأمير يورث الأرض أبنائه وتتجزأ وتقسم عليهم فأصبحت الملكية مفتتة، ولذا دعت الأمور في العصر الوسيط بأن الذي يملك الأرض هو الابن الأكبر فقط ويحرم بقية الأبناء، وكانت النتيجة هي ظهور الأمراء المغامرين أي أنه أي أمير بلا أرض عليه أن يجد لنفسه أرض إما بالحرب بين أخوته، أو بالسلب من الأمراء الآخرين، ولذلك نشأت الحرب الأهلية وتدخلت الكنيسة والملوك وتم وضع فترة (سلام الله) فالنساء والتجار ورجال الدين والأطفال والمغنيين الجوالة لا أحد يعتدي عليهم، ولكن عند الحرب كان كثيراً ما ينتهك سلام الله. أما فترة الصوم الكبير وتسبق عيد الفصح وأعياد القداس والعذراء والمسيح وفترة الصوم الصغير فيحرم في تلك الفترات القتال وسمي ذلك (هدنة الله).

وهكذا أفلحت "هدنة الله" Truce of god في حماية الفلاحين خلال فصول الحرث والزراعة والحصاد، وكذلك توفر الأمان للتجار الجائلين خلال هذه الفصول للانتقال من سوق إلي أخري، أما فيما عدا ذلك فكان من حق النبلاء خلال فصلي الشتاء والصيف أن ينغمسوا في ممارسة رياضتهم المفضلة آلا وهي الحرب. وكان من بين ما تضمنته هدنة الرب عدم مهاجمة أي رجل أو امرأة ، أو تدمير قرية أو حصن قرية،كما يجب المحافظة علي الأراضي والحيوانات وكافة الممتلكات.

أما الأمير (الحاكم المدني والقائد العسكري)؛ فبمقتضى سيطرته علي الأرض أصبح السيد الفعلي لها فهو ممثل الملك في المقاطعة وعليه أن يجهز الجيوش لمحاربة الأمراء للدفاع عن قلعته ضد إخوته والأمراء المغيرين والملك نفسه أحياناً،فهو أي الأمير الحاكم المدني فُوض من الملك

فأصبح القاضي والمنفذ للعقوبة وأصبح القائد العسكري أيضاً فأصبح الأمير ملكاً بغير تاج (الأمراء ملوك غير متوجين) ومن أجل ذلك قال الفريد "الضلع الذي يحكم". وفي الحرب يستعد الأمراء للاشتراك فالملك يستنفر جنود الأمراء والأمراء أنفسهم، وكان من حق الأمير أن يرفض الاشتراك في الحرب لذا حُددت فترة زمنية يخدم الأمير فيها الملك وهي (٤٠ يوم) فإذا زادت الحرب عن ذلك ينسحب الأمير أو يدفع الملك تكاليف الحرب للأمير، وإن لم يكن لديه مال يعده بأرض جديدة.

لقد كان الأمراء أصحاب النفوذ والأمير يتمتع بحصانة عسكرية تتمثل في القلعة التي توجد في وسط الدوقية فهي عاصمتها وحصن الأمير والثكنة العسكرية الكاملة والمهمة الأساسية لها الدفاع عن الأمير. ومما يذكر هنا؛ أن القلاع حتى القرن التاسع كانت عبارة عن حصون خشبية غير أن هذه الحصون لم تلبث أن تحولت إلي أبراج فكانت القلاع، حيث يقام حول القلعة سوراً وخندق عميق وبها أبراج في الزوايا يستقر بها الرماة. وكانت القلعة أيضاً مستقر للسيد الإقطاعي حيث يعقد محكمته ويراجع الحسابات التي يقدمها له جباة الضرائب التابعين له، فكانت أخطر صفة للأمراء بناء القلاع دون تصريح من الملك فالقلعة عصب الحياة العسكرية.

ولإظهار ذلك؛ نذكر أن إمبراطور ألمانيا فردريك بربا روسا عام ١١٧٦م في حملته الخامسة علي إيطاليا دعا الأمراء للخروج ليثبت نفوذه الروماني ولكن أمير سكسونيا هنري رفض ذلك، وكان امتناعه عن الذهاب سبباً في هزيمة فردريك في إيطاليا، وعندما عاد الملك أخذ يجهز نفسه سبع سنيين لحرب أميره (أمير سكسونيا التابع له).

ومما لا شك فيه؛ أن الأمراء كان عليهم حقوق إلزامية يقدمونها للملك هي:

- عندما تتزوج الابنة الكبرى للملك؛يقدم الأمير هدية بمناسبة الزواج السعيد وقد تكون الهدية عبارة عن نقود،مجوهرات،أو أحجار كريمة.
- عندما يصل الابن الأكبر للملك لسن الفروسية (يصبح فارس)؛ يقام احتفالا ضخماً ويقدم الأمراء هدية لهذه المناسبة.
- إذا وقع الملك في الأسر؛ يدفع الأمراء فدية وهو التزام أدبي وإقطاعي وكان لابد من وجوده.
- وعند موت الأمير؛ يتولي أكبر أبنائه فيقدم (حلوانٍ) للملك لتأكيد حق الملك وان الهبة تجدد برغبته ولا يطلق عليها ضريبة ولكنها هدية.

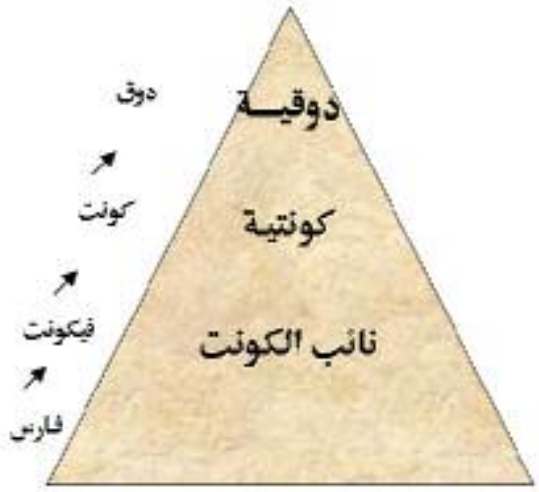

شكل (٢)

سلم الأمراء في أوربا [٣]

وكان هذا النظام يجري دون نص مكتوب فهذا عرف (قانون غير مكتوب) متعارف عليه. وكانت العلاقة بين الأمراء والملك علاقة فَصَلَية " أي تبعية ". باللغة الإنجليزية Vassal وباللاتينية Vassus ويعني ذلك أن كل الأمراء تابعين للملك وأفصال له قانوناً من خلال النظام الإقطاعي، وكل أمير فَصَل (تابع) للأمير الأعلى منه في سلم الأمراء في أوربا وكلاً منهم ولائه لسيده المباشر أي (علاقة الولاء المباشر) فالعلاقة للشخص وليس للدولة، وكان هذا هو آفة النظام. ومما يذكر في هذا الصدد؛ أنه من طغيان الأمراء علي الفلاحين كان لابد لهم من القيام بالخروج مع الأمراء في الحرب، حتى في خروج عام ١٠٩٥م للحروب الصليبية فقد كانت تشكل شكلاً عاماً للمجتمع الإقطاعي السائد. [٤]

(٣) من إعداد المؤلف

(٤)الحروب الصليبية: اسم أطلق على الحملات العسكرية النصرانية المنظمة بشكل رئيسي للاستيلاء على فلسطين بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، وذلك لأهمية موقعها الجغرافي بوصفها حلقة وصل بين الشرق والغرب، ولرغبة استعمارية في السيطرة على الأماكن المقدسة. كما أنها كانت رد فعل لفتوحات المسلمين وانتصاراتهم التي جسَّدت التسامح الديني بين مختلف الأديان السماوية. وقد نظم الغزاة القادمون من أوروبا الغربية ثماني حملات رئيسية، فيما بين ٤٩٠ – ٦٦٩هـ ، ١٠٩٦– ١٢٧٠م. وتعد تلك الفترة فترة توسع اقتصادي لأوروبا الغربية وزيادة قواتها المسلحة. وكان الصليبيون جزءًا من الحركات التوسعية النصرانية الواسعة.

الضلع الذي يصلي – رجال الدين في الكنيسة

رجال الكنيسة هم رجال الدين في الغرب الأوربي، في أول الأمر كانت الحياة بسيطة في ظل الوثنية ولكن في القرن الرابع الميلادي تحولت الإمبراطورية إلي المسيحية، وحرص الملوك علي إعطاء الأراضي أو ما عُرف بالأراضي الموقوفة للإنفاق علي المساكن والأمراء لصالح الكنيسة فأزداد ثراء الأخيرة وتحول الأساقفة إلي أمراء أكليروس فهو أمير رجل دين ولا يلبسون لباس رجال الدين وعكس ذلك العلماني (مَن يُعني بشئون الدنيا، وهي نسبة إلي العلم بمعني العالم). واستغل رجال الدين هذه الناحية لمصالحهم الخاصة ومنذ القرن (٧م) حتى القرن (١١، ١٢م) كانت هناك أمراض في المجتمع الأوربي يمكن أن نطلق عليها أمراض الكنيسة وهي:-

بيع الوظائف الكنسية

وهو شراء الوظائف أي الرتب الكهنوتية في مقابل أن يُدفع مبلغ من المال للأمير أو الملك وذلك علي الرغم من أن الذي يدفع شخص عادي أي لم يُربي تربية دينية، فرجل الدين رجل دين منذ البداية والتقوى لا تُشتري ولكن لماذا تُشتري ؟! لأن هذا المنصب يُدر دخلاً من الأراضي الموقوفة للكنيسة إبتداءً من القرن (٧ م، ٨م) وحتى القرن (١١م ،١٢م). وكان الملك فيليب أشهر تاجر للوظائف الكنسية وكان البابا يصدر ضده قرار الحرمان ولكن فيليب لم يكن يبالي. وقد أطلق على بيع الوظائف الكنسية "**السيمونية**" نسبة إلي شخص يدعي سيمون الساحر الذي ذهب لبطرس وقال له " **امنحني التقوى والبركة**" ودفع له مال فقال بطرس " لا تُشتري بالمال" ويقصد التقوى، فسميت بيع المناصب السيمونية نسبةً لأول من فكر في شراء التقوى" الوظائف الكنسية".

زواج رجال الدين

في الحقيقة؛ إن رجال الدين لم يكن لهم الحق في الزواج فهناك كنيسة أرثوذكسية مصرية وشرقية في الشرق اليوناني، وكان يسمح لرجال الدين بالزواج حتى درجة قسيس فقط ،أما الكنيسة الكاثوليكية الغربية فقد حَرمت الزواج تماماً ومنذ القرن الرابع الميلادي حدث هذا التقسيم. وبالنسبة للرتب الكنسية فهي كالأتي:-

- شماس (قارئي)
- قمس (كنيسة مدينة)
- قسيس (كنيسة محافظة)
- أسقف (أعلى مرتبة)
- رئيس الأساقفة (البطريرك)
- البابا.

وقد كان الزواج ممنوعاً لأن الكنيسة هي عروس المسيح فرجل الدين حياته عذرية كاملة،فإذا اشتري رجل الدين منصبه في الغرب فليس لديه تقوي داخلية، ومن أجل الثروة وحتى لا تذهب لغيره فأقبل رجال الدين علي الزواج فكان هذا هو المرض الثاني زواج رجال الدين . فالزواج مع مساحة الأراضي الضخمة التي كانت موجودة خلقت تلك المجوعة من رجال الدين الذين أطلق عليهم أمراء لأنهم يمارسون حياة الأمراء فعرفوا بأمراء الأكليروس. ومما يذكر أن؛ الأمير الأكليروس كان يفوق الأمير العلماني لأنه ليس عليه إلتزامات أمام الملك مثل باقي الأمراء العلمانيين، فأصبح رجال الدين (أمراء الأكليروس) أشد خطراً وثراء ونفوذ في الغرب الأوربي، لذا كله تفشي مر ض زواج رجال الدين والسيمونية حتى أن الكنيسة كانت قد تحولت إلي هيئة إقطاعية تمنح الوظائف الكنسية.

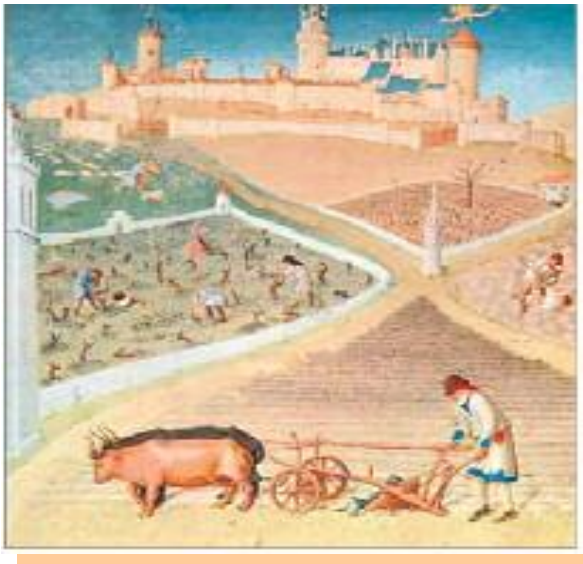

صورة (٤)

الفلاحون الطبقة الثالثة في شعوب أوروبا في العصور الوسطى، كانوا يعملون في الأرض لكسب لقمة العيش لأنفسهم ولرجال الدين وللسادة .

(٥) صورة (٤) نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية

الضلع الذي يخدم – المحكومين : العامة

في الحقيقة؛ لقد مرت حياة الفلاح العامل في الأرض بعدة مراحل، فقد سادت مرحلة العبودية في العصور القديمة فهناك أحرار وعبيد في عصري اليونان والرومان حتى أن أفلاطون في كتابه "الجمهورية" يتحدث عن المدينة الفاضلة ويقرر أن الحكم والسيادة والعلم للأحرار والأعمال الدنيوية من أعمال العبيد، والفلاسفة هم معدن الذهب والقادرين علي الحكم. كما أن تلميذه أرسطو يؤكد هذه الناحية في كتابه عن " السياسة" فهناك فئة الأحرار وفئة العبيد. وفي العصر الوسيط وجدت عبودية من نوع آخر فوجدت مرحلة القنية " الأقنان" وذلك نسبة إلي الشخص/ العبد (قن).

ولكن هناك فرق بين عبد العصور الوسطي وعبد العصور القديمة؛ ففي العصور القديمة كان العبيد يأتون نتيجة الحروب بين اليونان وبعضهم وبين الرومان واليونان والفرس وبين اليونان والممالك الأخرى، فكثر عدد الأسري وتم تحويلهم لعبيد وتم تسميتهم بـ (رق) أي عبد لسيده. وفي المرحلة التالية في العصور الوسطي وبعد استقرار الجرمان كانت الأرض هي عصب الحياة وتحتاج ليد عاملة هي الفلاح ، والفلاح يحتاج إليه سيده وكان القانون يُمكنه من قتله ولكن قد عُفي عنه فكان رقيق الأرض تابع لسيده، فهو قن لا يملك حياته أو حريته وهذا هو نظام العبودية في العصر القديم.

أما في العصر الوسيط؛ كانت الأرض ملك السيد وارتقى القن درجة فأصبح القن يملك حياته ولا حريته. وقد كان الفلاح يتبع الأرض أينما ذهبت، بمعني أنه إذا بيعت الأرض تباع بمن عليها من الفلاحين، فالفلاح ليس له حق في الحياة سوى أن يخدم الأمير ويفلح الأرض، وعندما يتزوج ينجب أولاد لخدمة الأمير الذي يوزع أرضه وتكون أجود قطعة أرض خاصة به، ويوزع بقية الأراضي علي الفلاحين ليزرعوها، وكان علي الفلاحين أن يعملوا أربعة أيام علي أرضه سخرة دون مقابل كل أسبوع فيما سمي بالعمل الأسبوعي، وتعمل الزوجة والأولاد في قصره أيضاً دون مقابل. وللفلاحين ثلاثة أيام في باقي أرض الدوقية، وكان هناك مطحن واحد للغلال يملكه الأمير في الضيعة وذلك حتى يدفع الفلاح للأمير مقابل الطحن، كما انه هناك مخبز واحد فقط ومعصرة واحدة للعنب في قصر الأمير (الشريف) حتى يدفعون أيضاً للأمير.

صورة (٥)

فارس من العصور الوسطى أثناء استحمامه [٦]

ولم يكن من حق رقيق الأرض أن يرسل أولاده لتلقي التعليم في الكنيسة، أو أن يبعث بهم لممارسة التجارة في المدن قبل الحصول علي موافقة السيد. أما الضرائب؛ فكان علي القن أن يدفع كل ما يُفرض عليه حسبما يترائي للسيد، وكانت الضرائب تختلف من بلد إلي أخري ومن إقليم وضيعة إلي أخرى. وكانت ضريبة الرأس تمثل عبئاً ثقيلاً علي كواهل الفلاحين، كما كان علي القن أيضاً أن يدفع للكنيسة ضريبة العشور، وكذلك كان السيد يفرض نوع من المكوس علي استخدام القناطر أو الطرق في الضيعة. وكان غير مسموح للفلاح أن يتزوج إلا بأمر خاص من الأمير ولا يتزوج من ضيعة أخري وتلك كارثة، وغير مسموح للفلاح الذهاب للمدينة، وإذا ذهب لها ولم يرجع في خلال ثلاثة أيام أصبح شخصاً مطارداً، أو يحرم من دخول ضيعته وكل الضياع الأخرى

(٦) صورة (٥) نقلاً عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا ، متاح بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٦ على الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/صورة:Bad,_en_medeltidsriddare_i_badet,_Nordisk_familjebok.png

لأنه قن أبق (ضال) ترك ضيعته وخرج عن طاعة أميره. كما أن القن يسكن في أكواخ من القش والطين بأرضية موحلة فهو يعيش طوال أيامه في الطين، فيقول ويل ديورانت في كتابه(قصة الحضارة) إذا جاء الشتاء دخل الفلاح وزوجته وأبنائه وبهائمه وضيوفه في الكوخ ليدفئ بعضهم بعض.

هذه الحياة وبتلك الصورة المظلمة الظالمة استمرت خمسة قرون كاملة من القرن التاسع الميلادي حتى القرن الرابع عشر الميلادي، صورة عاشها المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع.

الدول الإقطاعية في أوروبـــا ١٠٩٦م: توضح هذه الخريطة التقسيم السياسي في أوروبا عام ١٠٩٦م، حيث كانت فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة مكونة من كثير من الدول الإقطاعية، وقد حكم كل منها نبيل إقطاعي (لورد). أما الملوك فقد حكموا الأراضي الملكية فقط. وفي فرنسا حكم الملك منطقة إيل دو فرانس (جزيرة فرنسا) التي تظهر باللون الأصفر. وكانت إنجلترا مملكة موحدة، حكمها وليم الثاني.

(٧) خريطة (١) نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية.

المبحث الثاني

ألمانيا في العصر الوسيط

"يتم تتويجي في مدينة آخن التي توج بها شارلمان"

أوتو الأول

لقد اختلفت نتائج نهاية النظام الإقطاعي في كل دول أوربا، فالمقدمات واحدة والنتيجة مختلفة، فقد خرجت ألمانيا وإيطاليا في النهاية دول ممزقة، وإنجلترا ملكية مقيدة أو دستورية، وفرنسا ملكية مستبدة.

أما بالنسبة لألمانيا ودورها في العصر الوسيط كمثال لدولة ممزقة، فحتى القرن العاشر ٩١١م لم يكن هناك شيء يسمي ألمانيا، فهذا التاريخ هو تاريخ ميلاد ألمانيا وما قبله لم يكن هناك كيان سياسي يسمي ألمانيا فهو غير موجود والمكان موجود. فالإمبراطور شارلمان[١] أصبح إمبراطور ليلة عيد الميلاد ٨٠٠م، وكانت الإمبراطورية الكارولنجية تضم (غالة — ومقاطعات ساكسونيا) ، والجرمان من اسكندنافيا من الشمال الثلجي البارد ذهبوا للجنوب في مكان دافئ يسمي جرمانيا، وسميت (ألمانيا — Germany) نسبة إلي الجرمان فجرمانيا هي تلك المنطقة التي تفرعت منها الشعوب الأوربية حالياً.

وكانت ألمانيا تعرف بالمنطقة الشرقية من الإمبراطورية الكارولنجية، وفي عام ٩١١م مات لويس الطفل دون أن يترك ورثياً فقد كان آخر ملوك الإمبراطورية الكارولنجية، وأصبح أمام المنطقة إما استدعاء شخص من فرنسا ليحكمها، أو اختيار أحد الأمراء ليتولى العرش عليها، وقد فُضل الاختيار الثاني وتم اختيار ملكاً آخر هو كونراد الأول Conrad I(٩١١م– ٩١٨م) ليكون أول ملك ألماني يحكم ألمانيا وعُرفت هذه المنطقة بهذا الاسم منذ هذا العام ٩١١م.

(١) شارلمان (٧٤٢م — ٨١٤م) ويسمَّى تشارلز الأكبر، أشهر حكام العصور الوسطى، وشخصية رئيسية في التاريخ الأوروبي. وقد احتل جزءًا كبيرًا من أوروبا الغربية ووحَّدها في إمبراطورية واحدة عظيمة. أحيا شارلمان الفكر السياسي والثقافي في أوروبا الذي كان قد اندثر بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي. وقد وضعت أنشطته حجر الأساس للحضارة الأوروبية التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى.

عمل شارلمان على حماية الكنيسة وتوسيع سيطرتها باستمرار. ولتحسين ظروف المعيشة في مملكته أدخل نظام الإقطاع، الذي أصبح النظام الأساسي لأوروبا سياسيًا وعسكريًا للأربعمائة سنة التالية. وقد انفرط عقد دولته بعد وفاته عام ٨١٤م.

صورة (٦) [٢]

تتويج البابا ليو الثالث لشارلمان
ليلية عيد الميلاد عام ٨٠٠ م
للرسام جان فوكيه

طبيعة ألمانيا الجغرافية

وبالنسبة لطبيعة ألمانيا الجغرافية فهي؛منطقة سهلية منبسطة،و منطقة جبلية وعرة،فالطبيعة تختلف من ساكسونيا إلي فرانكونيا وطبيعة البشر من جبلية صارمة إلي سهلية منبسطة ، فأنهار ألمانيا تنبع من داخلها للخارج مثل الدانوب والراين وتستخدم تلك الأنهار حسب جريانها فليس هناك التقاء فالأنهار تفرقهم، فالمواصلات النهرية الداخلية تباعد بين الألمان، وهما أهم عاملان فرقا بين الألمان كطبيعة جغرافية؛ الأرض والنهر.

التكوين العرقي

الناحية الجغرافية والناحية العرقية مجموعة في مكان (لا يجمعهم سوي المكان الذي بطبيعته مفرق). فألمانيا مجموعة من القبائل قادمة من اسكندنافيا جاءت ونزلت واستوطنت؛ الفرنجة في منطقة سميت فرانكونيا، والساكسون في ساكسونيا، والبافاريون في بافاريا، وعناصر أخري في منطقة سوافيا. وهكذا أصبحت المنطقة تجمع قبائل متفرقة لا يجمعهم سوي المكان الذي كان بطبيعته مُفرق ساعد علي الإنفصال والتباعد، كما كانت كل قبيلة تعتز بمكانها. ويذكر أحد المؤرخين أنه: " في ألمانيا ولمدة ١٠٠٠ عام كان الشخص يفتخر بأنه سوافي أو بافري أو ساكسوني أكثر ما يعرف أنه ألماني".

(٢) صورة (٦) نقلاً عن الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

العاصمة

العاصمة في أي دولة مكان القلب، وألمانيا طوال تاريخها لم تعرف مكان العاصمة حتى القرن ١٩م فإذا كان يحكمها أسرة من ساكسونيا فتصبح العاصمة ساكسونيا، وإذا كانت الأسرة الحاكمة من بافاريا تصبح العاصمة بافاريا وهكذا. وكان الأخطر من ذلك هو عدم وجود عامل وحدة واحد يوحد ألمانيا في هذه القرون فـ (الأرض والناس والعاصمة) ليس منهم شيئاً موجوداً وحتى النظام الإداري ؛ فالملوك إذا كانوا من بافاريا فالموظفون من بافاريا فلا كيان إداري يحفظ الدولة.

النظام الحكومي

لم تعرف ألمانيا الحكومة المركزية الواحدة فلم تخضع يوماً ما لحكومة (سلطة) الإمبراطورية الرومانية فألمانيا خارجة عن نطاقها فسميت " سنرالبيا " في القرن الرابع والخامس، ولم تعرف الخضوع لسلطة مركزية واحدة فهي قبائل متفرقة.

الديانة

دخلت المسيحية ألمانيا متأخرة في القرن ٨م — ٩م علي يد شارلمان الذي بعث (٢٠) حملة علي مدي (٢٥ عاماً) لقهر الناس علي اعتناق المسيحية، ولكنها لم تخضع لكنيسة واحدة ولا لسلطة كنسية واحدة في ظل المسيحية ولا لسلطة سياسة واحدة.

تلك كانت عوامل التفكك فخرجت ألمانيا من العصور الوسطي دولة ممزقة في القرن ١٤م وعلي الرغم من ذلك ففي القرون ١٠م،١١م،١٢م (العصور الوسطي الرئيسية) كانت ألمانيا أقوي دولة في أوربا فكيف حدث هذا ؟! أن تصبح يوماً ما في نهاية العصور الوسطي دولة ممزقة في القرون ١٤م ، ١٥م.

الواقع أن؛ هناك عاملان أشد وأقوي عن كل ما سبق ذكره:

▪ الصراع بين الملوك والأمراء

الألمان كان عليهم في عام ٩١١م إما أن يستوردون وريثاً من غالة، أو أن يختارون ملكاً من بينهم وقد اختاروا الاختيار الثاني لذا كانت ألمانيا الوحيدة في أوربا الذي قام فيها النظام الملكي علي الاختيار (ملكية بالاختيار). وعلى الرغم من أن النظام الملكي كان يقوم علي التوريث، ولكن هذا الاختيار في حد ذاته كان يضعفها لأن الأمراء كانوا يختارون من هو أضعف وليس أقوي

شخصية فيهم ليتم التحكم فيه، ومع ذلك كان هذا قليلاً ما يحدث فالقاعدة هي الانتخاب ولكن المطبق هو الوراثة . فـ كونراد تم اختياره أولاً ليكون ملكاً ثم هنري الأول Henry I (شاعت تسميته بالصياد The Fowler) وقد عَمد كلاً منهما علي توريث الحكم لأبنائه فتصبح السلطة ملكية بالوراثة.

وعندما كان يخلو العرش من وريث أو تحدث أزمة سياسية بين الملك والأمراء يعمد الأمراء إلي ممارسة حقهم في الانتخاب. فهذا كان الصراع بين الملوك والأمراء الذي هو تاريخ ألمانيا ، فالملك يريد أن يمارس سلطته الفعلية ويصبح ملكاً ويرث أبنائه العرش، والأمراء يريدون ممارسة حقهم الشرعي وامتيازاتهم التي حصلوا عليها من قبل .وقد حاول ملك ألمانيا هنري الرابع إقامة عاصمة وأرادها في ساكسونيا وهو فرانكوني، وكان يريد ساكسونيا كمكان حصين فنشأت ثورة ضده في ساكسونيا لمدة خمس سنوات لأنهم اعتبروه مستعمر معتدي بالرغم من انه الملك والمنطقة ألمانية ، وتلك كانت المحاولة الوحيدة طوال العصور الوسطي لإقامة عاصمة لهم ولكنها فشلت.

▪ الصراع بين البابا والإمبراطور

في عام ٩٦٢م تُوج الملك الألماني أوتو الأول[٣] إمبراطوراً رومانياً وقام بتتويجه البابا الروماني يوحنا الثاني عشر وهنا تعاد المسرحية علي يديه فالبابا ليو الثالث في عام ٨٠٠م قام بتتويج شارلمان، ثم يحدث ذلك بعد ١٦٢عام مرة أخري، وبذلك احتل الملك مكانيين وأصبح له شخصية مزدوجة فهو عند الألمان ملك ولدي باقي الدول إمبراطور.ولما كان عليه أن يكون إمبراطوراً

(٣) شارلمان أوتو الأول العظيم (٩١٢م–٩٧٣م): أول الأباطرة الذين حكموا ماعرف لاحقًا بالإمبراطورية الرومانية المقدسة. وخلف أوتو والده هنري الأول كملك على ألمانيا عام ٩٣٦م.

وبينما حكم والد أوتو دوقية سكسونيا فقط، حاول أوتو أن يحكم ألمانيا بأكملها .وقام عام ٩٥١م باجتياز جبال الألب وأعلن نفسه ملكًا على إيطاليا. ولكنه أرغم على العودة إلى ألمانيا عندما قام الأمراء الألمان الآخرون بسلسلة من الثورات في البلاد، وقام السلافيون في بولندا وبوهيميا بحركات تمرّد وعصيان، وقامت المجر بغزو ألمانيا. وتمكن أوتو من سحق المجريين في معركة نهر ليخ عام ٩٥٥م، وأرغم البولنديين والبوهيميين على الرضوخ لحكمه. وتمكن من استبدال بعض أفراد عائلته بمعظم الأمراء الألمان المتمردين عليه. واضطر ملك آرلز أو برغنديا أيضًا للقبول بالحكم الألماني .وبعد ذلك وجه أوتو اهتمامه نحو إيطاليا فتزوج من أرملة ملك إيطالي سابق، وبذلك انتصر على أحد منافسيه على العرش. وفي عام ٩٦١م اجتاز أوتو جبال الألب ليخمد ثورة قامت في روما. وقام البابا جون الثاني عشر بتتويجه إمبراطورًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

فكان لابد أن يسيطر علي روما بما فيها البابا، فالسيادة علي إيطاليا تعني السيادة علي البابا ولكن هذا الأخير تَوجه فمَن يتبع مَن ؟!

- **الإمبراطور الذي يملك روما فلابد أن يتبعه البابا.**
- **البابا هو الذي توج الإمبراطور فلابد للإمبراطور أن يتبعه.**

تلك حرب استمرت خمس قرون واستخدم كل من الاثنين الأسلحة الفتاكة (رجال الفكر والدين والسياسة) فمَن هو أعلي كعباً وقدراً من الأخر البابا أم الإمبراطور .كما أصبح الإمبراطور مقسم لقسمين قسم يجادل به الأمراء كملك فمَن له السيادة الملك أم الأمراء، ووجه في الخارج يجادل به البابا فمن هو السيد البابا أم الإمبراطور ؟!

الصراع بين الملك الألماني والأمراء

كان الملك الألماني يحمل صفة مزدوجة، فقد كان في صراع بعلاقته بالأمراء لأنهم كانوا يحافظون في ذلك على مناصبهم ومميزاتهم فلذلك تصارعوا مع الملك، فأصبح تاريخ ألمانيا صراع مستمر لإثبات حق كل منهم. وأيضا كان الصراع بين البابا والإمبراطور الذي هو ممثل المسيح أم ممثل الناس، فمن أجل أن يكون ملك لابد له أن يخضع الأمراء، ولكي يكون إمبراطور عليه أن يخضع البابا في روما ولم يفلح في كلتا الهدفين.

وعلى الرغم من هذه العوامل الكامنة تحت الأرض تُفرق ألمانيا، ففي النهاية تكون دولة قوية وفي آخر العصر الوسيط تصبح دولة ممزقة. ففي عام ٩١١م ولدت وكُتبت شهادة ميلاد ألمانيا بتولي الملك كونراد خلفاً للويس الطفل. وفي عام ٩١٨م توفي كونراد وتولى هنري الأول (٩١٩م-٩٣٦م) الذي اشتهر بلقب هنري الصياد[٤]، فقد كان يصيد الأرانب البرية مما كان يؤدي لهلاك الزرع، وكانت الكنيسة والأمراء كثيراً ما يشكون من تلف الأرض لأن أميراً ما كان يتبع فيها أرنب بري.

الأمراء اختاروا الملك كونراد وقبل وفاته أوصى بهنري كملك فأصبحت ملكية وراثية، فالملكية الوحيدة في أوربا بالانتخاب كانت ألمانيا وكان النظام المطبق النظام الوراثي، فيأخذ الملك لأبنه قبل وفاته البيعة من الأمراء فالقاعدة الانتخاب والمطبق الوراثة، مع ملاحظة أن الأمراء لم

(٤) هنري اسم تَسمى به سبعة من الحكام الألمان. وكل هؤلاء باستثناء هنري الأول انتخبوا أباطرة للإمبراطورية الرومانية المقدسة. و كان كل من هنري الأول الذي سمي بفاولر وهنري الثاني من سلالة أسرة سكسون الحاكمة.

يتخلوا عن حقهم في ممارسة الانتخاب. وقد كانت أكثر الفترات التي يحصل فيها الأمراء على امتيازات هي فترة الانتقال من أسرة لأسرة حتى يأتي ملك قوي يوصي لأبنه بالعرش.

وقد مكث كونراد في الحكم سبع سنوات، وهنري أمير اختير ملك " الأول بين قرنائه" وكانت أرض الملك أصغر أرض بين الأمراء فطبق هنري مبدأ "عش ودع الآخرين يعيشون". فمنذ عام ٩١٩م وحتى ٩٣٦م وهو يمشي على هذا النهج ودون أن يدري ثبت النظام الإقطاعي في ألمانيا، وقبل موته أوصى بابنه أوتو الأول Otta I (٩٣٦م – ٩٧٣م) ملك من بعده.

وكان كونراد قبل ذلك اختار ألد أعدائه وهو هنري الصياد لأنه شخصية تصلح للحكم، وكان هنري أول مؤسس للأسرة الساكسونية بألمانيا فحدث الانتقال من فرانكوني إلى ساكسوني، فهنري من ساكسونيا وقد صنع أول قفزة جديدة فأوصى هنري بأبنه من بعده، وصدق الأمراء على ذلك ليس حباً في أوتو ولا احتراما لهنري الصياد ورغبته ولكن لأن المجيار"المجر" والبلغاريين كانوا يهددون ألمانيا في تلك الفترة على الحدود، وكانت المقاطعة الوحيدة القادرة على المقاومة والقادرة على الدفاع هي ساكسونيا، ولذا اختاروا ابنه من بعده للتصدي للخطر الخارجي، أي شخصية قوية لحماية لمصالحهم.

أما أوتو الأول فقال: "يتم تتويجي في مدينة آخن التي توج بها شارلمان" ومغزى ذلك أن أوتو يوحي لمعاصريه أنه شارلمان جديد،كان هذا عام ٩٣٧م بعد ١٢٣ عاماً من وفاة شارلمان عام ٨١٤م. وأتو الأول شخصية قوية عسكرية محاربة شخصية الملك الجرماني، وعند احتفال التتويج لفت أوتو أنظار الحاضرين إلى أنه في القديم كانت قبائل الجرمان تقوم على خدمة الناس في الحفل "زعماء العشائر" وسوف يُحي هذه العادة القديمة، فوافق الأمراء مكرهين وقاموا بخدمة ضيوف أوتو أثناء تتويجه في الاحتفال.ومعنى ذلك أنه ملك سوف يمارس سلطة كاملة على هؤلاء الأمراء، وهكذا كان أوتو فعلاً وكانت ألمانيا في القرن العاشر أقوى ملكية في أوربا في تلك الفترة.

تلك كانت البداية التي استمرت أربعة قرون فالمؤسس الحقيقي للملكية الألمانية في أوربا كان أوتو الأول عام ٩٣٨م، وقد هزم أوتو المجيار والبلغاريين، ثم في عام ٩٥٣م قامت ثورة استمرت حتى عام ٩٥٧م ولكنه تغلب عليها،فذلك كان تاريخ ألمانيا الصراع بين الأمراء والملك.

الصراع بين الإمبراطور والبابا في روما

في عام ٩٦٢م أُعيد من جديد تمثيل فصول مسرحية قديمة كانت قد أُقيمت على المسرح الروماني عام ٨٠٠م عندما توج البابا ليو الثالث شارلمان إمبراطوراً ليلة عيد الميلاد، فتعاد الفصول مع الاختلاف حيث تُوج أوتو على يد البابا يوحنا الثاني عشر.

وبدأ الصراع بين ملوك ألمانيا والبابوية التي ستكون حزينة جداً في كثير من الأحيان، فمن يمنح التاج من حقه أن ينزعه، والبابوية منحت التاج لشارلمان ثم أوتو الأول بعد ١٦٢ عام فقد أعطت لنفسها حق تتويج الأباطرة. والسؤال الآن هل تسمح البابوية بوجود إمبراطوريتين؛ شرقية في بيزنطة وغربية في روما، ثم من الأساس للسلطة أباطرة الإمبراطورية الرومانية في القسطنطينية أم الإمبراطورية الكائنة بيد البابا في الغرب فمن الأصح؟!

في الشرق الإمبراطور هو الذي يُعين البطريرك رئيس الكنيسة فهو موظف لدى الإمبراطور لأن الأخير أعتبر نفسه نائب المسيح على الأرض، وصاحب السلطة في الدنيا والدين، ولا معقب لحكمه أمام الناس ببل يُحاكم أمام الله. وفي الغرب لم يكن هذا النظام، لأنه في عام ٣٩٥م توفي ثيودسيوس وانقسمت الإمبراطورية بين ولديه؛أركاديوس في الشرق، وهونوريوس في الغرب. فقد انهارت الإمبراطورية في الغرب على يد الجرمان وحل الملك الجرماني على الأرض الرومانية: (الفرنجة في غالة– الوندال في أفريقيا– الساكسون في انجلترا — القوط الشرقيين في ايطاليا — القوط الغربيين في أسبانيا). وكان الفكر السياسي الروماني لا يقبل بوجود إمبراطورية أخرى، فتنسب الأرض إلى ممالك الجرمان وأسمائهم وليس إلى أراضي الإمبراطورية المنهارة، وبوجود هذه الممالك لم يوجد إمبراطور في الغرب ولكن وجد في الشرق إمبراطور، وأصبح البابا الوحيد في الغرب الذي له سلطة بعد انهيار المؤسسات الحكومية كلها.

وفي عام ٤١٠م أُبيحت روما على يد آلاريك الجرماني عندما دخل روما ومكث بها عشرة أيام والذي تفاوض معه هو البابا لأن الإمبراطور الروماني كان في رافنا وكأن روما لا تعنيه في شيء. ونلاحظ بذلك أن البابا بدء بذلك يمارس سلطاناً سياسياً فعلياً بجانب السلطان الروحي ويمارس ذلك والإمبراطور موجود. وقد أفلحت مفاوضات البابا في طرد الجرمان، ولذلك كتب القديس أوغسطين كتابه "مدينة الله" أشهر كتاب في العصور الوسطى في القرن الخامس الميلادي.

وفي عام ٤٥٥م بعد أن استولوا على أفريقية ٤٥٤م بدءوا يغزون إيطاليا، فطلب الناس من البابا التصدي للوندال فأخرجهم من إيطاليا إذ تعمدت البابوية إثبات أمرين: الأول، ممارسة السلطة السياسية بجانب السلطة الروحية، فكان هذا أول هدف تحققه البابوية. الثاني، تعمد البابوية تتويج الإمبراطور لتصبح هي المسيطرة.

وفي عام ٤٧٦م سقطت روما على يد الجرمان "القوط الشرقيين" وأُسقط وقتل رومولوس أوغسطولس وخلى العالم من وجود شخصية سياسية، وبعد خمسة وعشرين عاماً من الحرب جاء جستنيان واسترد إيطاليا ووضع عليها نائباً عنه في رافنا، وكان جستنيان في الشرق فخلى بذلك المسرح السياسي الروماني في الغرب من وجود شخصية سياسية قوية، ومن جهة أخرى كان ذلك عاملاً على ظهور البابوية فوجد لها مكان في نفوس الناس ووضعت البابوية هي الأخرى نظريات لتدعيم سلطانها.

والجدير بالذكر؛ أنه في القرن السادس الميلادي أخذ جستنيان(٥) قرار ذات مرة ولم يوافق عليه البابا فبعث جستنيان إليه وسجنه في مدينة على البحر الأسود، وكان ذلك باعتبار الإمبراطور نائب المسيح على الأرض. وهنا تكَشَّف للبابوية بأن الإمبراطور يستطيع أن يذلها وهذا خطأ في نفوذ البابوية. كان ذلك في الشرق لأن الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة فكان على البابوية أن

(٥) جستنيان الأول (٤٨٢– ٥٦٥م): إمبراطور بيزنطة "الإمبراطورية الرومانية الشرقية" منذ عام ٥٢٧م حتى وفاته. جمع القوانين الرومانية في قانون أطلق عليه كوربس جوريس سيفيلز (مجموعة القوانين المدنية). كذلك أطلق عليه قانون جستنيان، أو مدونة جستنيان وهو أساس للأنظمة القضائية لدى كثير من الأمم في عالم اليوم. أطلق على جستنيان لقب الأعظم. وقد استولى على معظم ماكان يُعرف بالإمبراطورية الرومانية الغربية من البربر. وبنى القلاع والمرافىء والأديرة وكنيسة أياصوفيا الشهيرة الموجودة بإسطنبول بتركيا.

وُلِدَ جستنيان في الدولة التي تعرف الآن باسم مقدونيا. عينه عمه جستين الأول مساعد حاكم عام ٥٢٧م .وبعد أشهر قليلة توفي جستين، وأصبح جستنيان الإمبراطور الأوحد. وخلال فترة حكم جستنيان، حاولت زوجته ثيودورا التأثير على سياسته. وكان جستنيان نصرانياً أرثوذكسيًا حاول توحيد إمبراطوريته تحت معتقد نصراني واحد. وقد اضطهد جستنيان المهرطقين النصارى (أولئك الذين عارضوا تعاليم الكنيسة) والوثنيين. في عام ٥٢٩م أغلق مدارس الفلسفة في أثينا باليونان؛ لأنه أحس أن المدارس كانت تدرس الوثنية. وفي الأعوام الأولى التي تلت ثلاثينيات القرن السادس الميلادي، شن جستنيان سلسلة من الحروب ضد الواندال والقوط الشرقيين والقوط الغربيين، الذين كانوا يحتلون معظم الإمبراطورية الرومانية منذ أوائل القرن الخامس الميلادي. وفي أواسط العقد السادس من القرن السادس الميلادي، احتلت جيوشه شمالي إفريقيا وإيطاليا وجزءاً من أسبانيا.

تبحث عن مخرج فعجلت الأحداث وتم تتويج شارلمان ليلة عيد الميلاد عام ٨٠٠م إمبراطوراً على الغرب الأوربي، ويعني ذلك أن البابوية صنعت الإمبراطور ولكنها لم تخلق إمبراطورية ككيان لأنها كانت موجودة بالفعل.

كان هذا الفكر السياسي البابوي، وكان هذا غطاء يهرب به البابا من سلطة الإمبراطور في الشرق في القسطنطينية ليكن له سلطاناً في الغرب على الإمبراطور الجديد، فالبابا مواطناً رومانياً يخضع لسلطة الإمبراطور الذي باعتباره مواطناً رومانياً هو الآخر يخضع لسلطان البابا الروحي، وهذا لم ينفذ في الشرق لأن الإمبراطور له السيادة العليا دين ودنيا.

وعلى ضوء ذلك نرى الأتي:

الإمبراطور ليو الثالث: تزوج أربع مرات وإمعانا في إذلال البابا الرافض زواج الإمبراطور كلل الإمبراطور نفسه.

الإمبراطور فردريك الثاني: عندما رفض قديس القدس تكليل الإمبراطور فكلل فردريك نفسه.

الإمبراطور شارلمان: بعث رسالة للبابا وقال له" أرجو أن تكون مني كما كان هارون لموسى"، أي يصلي فقط، فالبابا ليو الثالث أراد أن تحول الإمبراطورية في الشرق إلى مؤسسة دينية لكن شارلمان حول الكنيسة في الغرب إلى مؤسسة دنيوية.

وعندما توفي شارلمان عام ٨١٤م كان أولاده غير قادرين على ممارسة السلطة من بعده، ولما تم انتخاب أوتو في عام ٩٦٢م أُعيدت المأساة من جديد ورجع أوتو الأول إلى روما وعزَل البابا يوحنا الثاني عشر وعين بابا جديد،ذلك عندما أحس أنه يريد ممارسة السلطة بدلاً منه.

هذه القصة السريعة الطويلة في تاريخ ألمانيا والصراع بين الإمبراطور والبابوية استمرت ٣٠٠ عام.

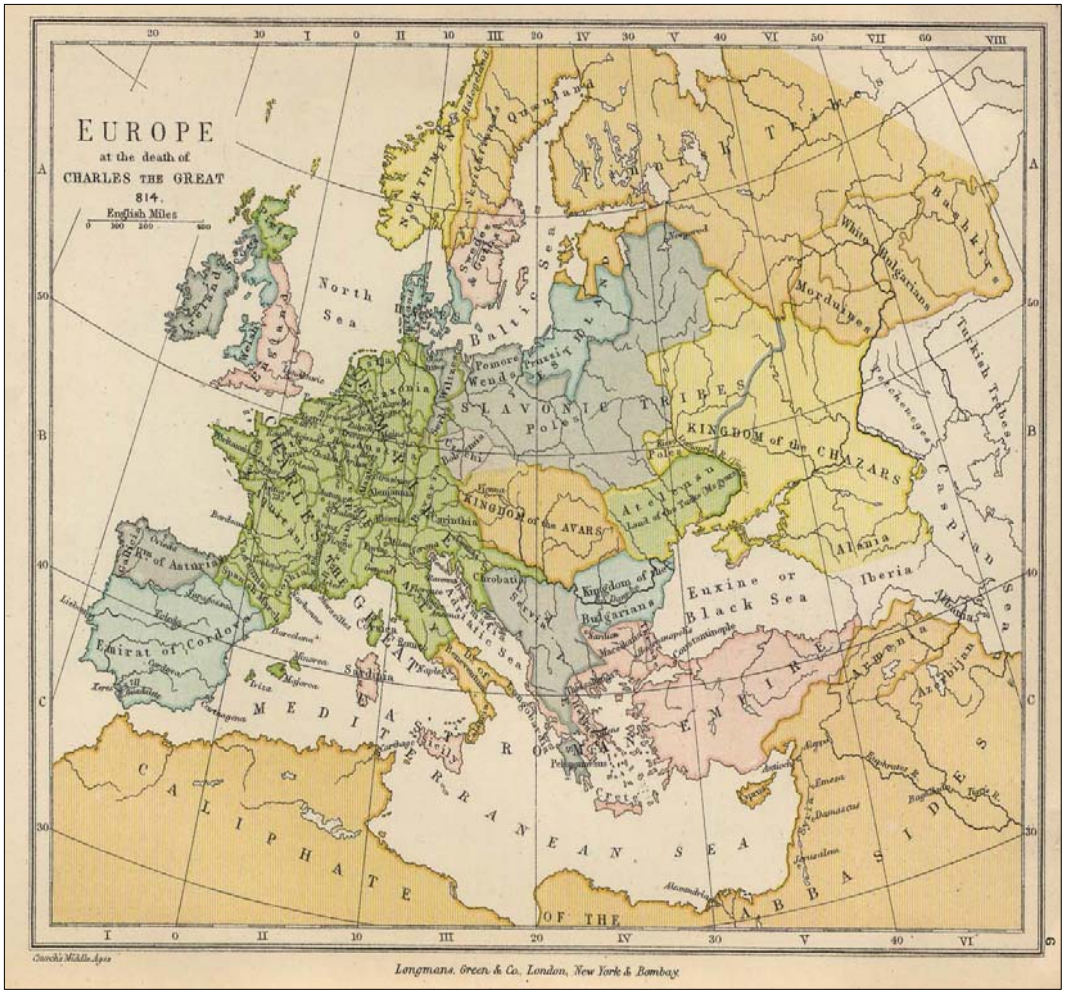

خريطة (٢)

أوربا عند وفاة شارلمان[٦]

(٦) خريطة (٢) متاحة على شبكة الإنترنت بتاريخ٦ /٢٠٠٨/٣/ على الرابط:

http\\www.lib.utexas.edumapshistoricaleurope_814_colbeck.jpg

المبحث الثالث

برنامج الباباوات في

السيادة الروحية على الكنيسة

والسيطرة الزمنية على الدولة

"إن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ أبداً في عمرها الماضي ولن تخطئ أبداً في عمرها الأتي"

البابا جريجوري السابع

كان انهيار الإمبراطورية الكارولنجية وسقوطها كارثة حقيقية على الباباوات و الكنيسة الغربية، نظراً للنتائج الخطيرة التي ترتبت على البابوية ومستقبلها الروحي و الاقتصادي و السياسي؛ فالبابوية فقدت حلفائها التاريخيين الذين كانوا يدرؤون عنها الأخطار حيث تجددت غارات الفيكنج و المجريين كما انتشر الرعب وسادة الفوضى و انعدم الأمن في الداخل. كما تعرضت البابوية إلى تسلط العلمانيين من ملوك وحكام و أمراء و إقطاعيين. بالإضافة إلى تسلط العلمانيين على الكنيسة وانهيار البابوية أدى إلى تفشي ثلاثة من الأمراض الخطيرة في الجهاز الكنسي وهي (السيمونية– زواج رجال الدين — التقليد العلماني). (١)

السيمونية؛ هي عملية شراء مناصب الكنيسة وبيعها، ويعود أصل السيمونية للساحر اليهودي الذي حاول إغراء القديس بطرس بمبلغ من المال لقاء أن يبارك له أعماله،إلا أن القديس بطرس لم يقبل بذلك وقال له: " أنت هالك ومالك". ولقد انتشرت السيمونية بشكل كبير بين رؤساء الأساقفة وبعض القساوسة و الشمامسة،مما ترتب عليه فساد رجال الدين و انحطاط مستواهم الأخلاقي، ووصول عدد كبير من غير الصالحين للمناصب الدينية،بالإضافة إلى ضعف الكنيسة وتشويه سمعتها، وانتشار الابتزاز المادي للجمهور المسيحي بشكل لا أخلاقي.

وبالنسبة لزواج رجال الدين؛ فقد كانت الكنيسة تحرم زواج ورجال الدين حتى يتفرغوا للشؤون الدينية و الروحية دون الاهتمام بالأمور الدنيوية، وحتى لا تنتقل المناصب الدينية إلى أبناء رجال الدين وتصبح وراثية، ولكي لا تتحول الأوقاف و الممتلكات الكنسية إلى ممتلكات وراثية بين أبناء رجال الدين.ولكن على الرغم من كل ذلك فإن انهيار إمبراطورية " شارلمان" وتسلط العلمانيين و انتشار السيمونية أدت إلى التخلي عن مبدأ العزوبية منذ أواخر القرن التاسع الميلادي ، حيث أقبل على الزواج عدة من رجال الدين وأهملوا واجباتهم الكنيسية ، وأخذوا يصرفون الممتلكات الكنيسية في أعمال لا أخلاقية.

أما التقليد العلماني؛ فهو أن يقوم الحكام العلمانيون من ملوك وأمراء إقطاعيين بتعيين رجال الدين وتقليدهم مهام مناصبهم الدينية، حيث أنه نتيجة ضعف السلطة المركزية وانحلال الإمبراطورية عمل الإقطاعيون على تعيين رجال الدين في مناصبهم و تقليدهم مهام مناصبهم الدينية. وكان للتقليد العلماني نتائج على الكنيسة الغربية فقد تم تجاهل حقوق البابا الذي يمثل

(١) تمت الإشارة إلى السيمونية وزواج رجال الدين في المبحث الأول من هذا الكتاب.

أعلى سلطة روحية في العالم الغربي، كما جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين و أداة طيعة في أيديهم، وأصبحت الوظائف الدينية بمثابة اقطاعات يمنحها الحكام العلمانيون لرجال الدين،بالإضافة إلى تفكك الكنيسة وتحول الأساقفة إلى أتباع للملك أو الإمبراطور، ناهيك عن تدخل الملوك و الأمراء في تعيين الباباوات.

وهكذا؛ قامت حركة الإصلاح بواسطة بعض الباباوات و الأساقفة الذين وخذهم ضميرهم لهذه الحالة التي انتشر بموجبها الانحلال و الانهيار الذي آلت إليه المؤسسات الكنسية ورجال الدين في غرب أوربا. وقد ظهرت حركة الإصلاح الكلوني أو " الإصلاح من داخل الأديرة" في حوض الراين الأعلى حيث أسس " وليم كونت أوفرن" ديراً جديداً في " كلوني"(سنة ٩١٠ م)، وقد عمد زعماء الحركة إلى الفصل بين الكنيسة و الدولة أي الفصل بين السلطتين الدينية و الدنيوية،وإصلاح الحياة الديرية بل إصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً.

الواقع أن؛ كانت الأديرة عبارة عن معاهد دينية تخرج منها عدد كبير من المصلحين الذين عملوا على إصلاح الكنيسة و إبعادها عن التدهور و الانحلال، فقد عمد المصلحين إلى وضع نظام ثابت ودائم لعملية انتخاب البابا من قبل مجلس الكرادلة، حيث أنه بعد وفاة البابا يجتمع الكرادلة و ينتخبون خليفة له، وإذا تعرض هؤلاء الكرادلة لأي ضغط خارجي فإن الانتخاب يعتبر باطلاً. وقد تعاطف ملك ألمانيا هنري الثالث Henry III (١٠٣٩ – ١٠٥٦) بعمق مع المبادئ الإصلاحية ومد يد العون و المساعدة للإصلاح الكلوني في أديرة ألمانيا. (٢)

الجدير بالذكر؛ أن البابوية آنذاك كانت قد خطت خطوات واسعة نحو تحقيق برنامجها الإصلاحي كاملاً، ففي سنة ١٠٥٤ قطعت البابوية كل ثلة لها بالكنيسة الشرقية فيما يسمى بالانشقاق الأعظم. وفي عام ١٠٥٩ دعا البابا نيقولا الثاني Nicholas II إلى عقد مجمع روما، وكان الهدف الرئيسي لهذا المجمع الديني هو تنظيم مسألة انتخاب البابا و إنقاذ البابوية من الهوة التي غرقت فيها. وقد تقرر في هذا المجمع أنه يجب أن يتولى الكرادلة وحدهم انتخاب

(٢) هنري الثالث ١٠١٧– ١٠٥٦م: من الأسرة الصالية الحاكمة، أصبح ملكًا على ألمانيا سنة ١٠٣٩م، وتوج إمبراطورًا سنة ١٠٤٦م، وقد بسط هنري نفوذ ألمانيا على جميع مناطق الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وساند الإصلاحات التي أُجْرِيَتْ على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بشجب زواج القساوسة وشراء مكاتب الكنائس. استولى على إيطاليا ثم نصب مرشحه الخاص على عرش البابوية، رغم وجود ثلاثة منافسين له. وبعد ذلك ادعى سيطرته على تسمية المرشحين للبابوية.

البابا،كما يتم اختيار البابا من بين رجال الدين في روما نفسها، وإذا تعذر إجراء عملية انتخاب البابا في روما فإنه يجوز إجراء الانتخاب في أي مكان،ويمنع إجراء الطقوس الدينية التي يشرف عليها الأساقفة المتزوجون.

ومن الملاحظ؛ أن البابوية ثبتت برنامج الإصلاح الكلوني حتى أضحى حركة أوربية ذات أهمية بالغة، وتجسد ذلك بصورة واضحة منذ عام ١٠٧٣ عندما اعتلى الراهب هيلدبراند Hildebrand عرش البابوية وأصبح اسمه البابا جريجوري السابع Gregyory VII وتولى زعامة هذه الحركة، حتى حق أن يطلق على هذه المرحلة من الإصلاح الكلوني الإصلاح الهيلد براندي أو الجريجوري.

وكان جريجوري السابع فلاح من تُوسكانيا في شمال إيطاليا وهي منطقة جبلية وعرة، ولذلك اتصف بالفظاظة وعندما دخل دير كلوني ازداد تعسفه عن ذي قبل، وقد اُختير بابا وهو يعيش الخمسينات من عمره، وقد وصفه بطرس الدمياني الراهب الإيطالي الشهير بأنه "الشيطان المقدس" Holy Satan .[٣]

في الحقيقة؛ يخطئ معظم الدارسون والمؤرخون في القول بأن جريجوري السابع صاحب فكرة ونظرية السمو البابوي "أي سمو البابوية وارتقائها" ولكنه ليس صاحب هذه النظرية، ذلك لأنه لم يبتدعها بل هو الذي وصل بها لقمة الجبل.

---

(٣) هنري السابع، القديس١٠٢٠ – ١٠٨٥م : انتخب بابا عام ١٠٧٣م بإيطاليا. قام بتجديد العمل بالمراسيم البابوية التي حرمت زواج رجال الدين النصارى، كما حرمت السيمونية "بيع المناصب الكنسية". وبدأ أيضًا برنامجًا إصلاحيًا حرّم التنصيب من قبل العلمانيين والذي بموجبه يمنح العلمانيون رجال الدين رموز مناصبهم الكنسيّة. كان هذا المنح من قبل العلمانيين يعطيهم فرصة التحكم فيمن يحتلون المناصب.

أدخله قرار منع العلمانيين من حق التنصيب في نزاع مع الإمبراطور هنري الرابع .ولقرون ظل أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة يُعيِّنون الكهنة ورؤساء الأديرة والأساقفة. وعقب خلافات حول بعض التعيينات الكنسية جمع هنري مجلس الأساقفة وأعلن عزل البابا، فما كان من جريجوري إلا أن أصدر قراراً بحرمان هنري من عضوية الكنيسة، وأعفى أتباعه من الولاء له بالطاعة. ونظرًا لأن كثيرًا من الأمراء الألمان أيدوا البابا، استسلم هنري لجريجوري في قلعة كانوسا عام ١٠٧٧م. غير أن النزاع اندلع مجدَّدا. ففي عام ١٠٨٠م قام جريجوري مرة أخرى بحرمان هنري من عضوية الكنيسة وأعلن خلعه .ولم يحاول بابا قط قبله أن يخلع إمبراطورًا من منصبه. وفي ذلك العام انتخب هنري ومعه مجلس من الأساقفة الألمان كليمنت الثالث بوصفه البابا. وقام هنري بتتويجه بابا بعد احتلاله روما عام ١٠٨٤م. توفي جريجوري في منفاه عام ١٠٨٥م.

وفي عام ١٠٧٤م عقد البابا " جريجوري السابع" مجمع روما، وأصدر قراراته بفصل كل من توصل إلى منصب كنسي عن طريق الشراء، كما يجب على جميع المسيحيين ألا يتعاونوا مع أي قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بتبعية المسيح و بتعاليم البابوية، وفيما يتعلق بالعزوبة يمنع القساوسة المتزوجون و الذين يرتكبون الفواحش من القيام بالقواسة.

وفي العام التالي شباط ١٠٧٥م عقد مجمع روما وقرر فيه البابا " جريجوري السابع" أنه: " على أي رجل دين يستلم منصب ديني في دير من رجل علماني يعتبر مفصولاً من الكنيسة "، و هذا القرار يعد ضربة قوية للأباطرة و الحكام العلمانيين وخاصة في ألمانيا، حيث يعتبر أصحاب المناصب الكنسية بمثابة إقطاعيين تابعين للإمبراطور، وفي هذا أيضاً إضعاف لسلطة الإمبراطور أمام سلطة البابا.

وفي آذار سنة ١٠٧٥م أصدر البابا جريجوري السابع أخطر وثيقة في العصور الوسطى في شكل عدد من القرارات عُرفت باسم الإرادة البابوية أو المراسيم البابوية Dictatus Papae ومن هذه المراسيم البابوية "**البابا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**" وأنه "**لا راد لقضائه**"، كما أنه "**أي مجمع لا يمكن أن يحوز الصفة العامة إلا برضائه**"، "**ومن حق البابا أن يحل الرعية من يمين الولاء لشرار الناس**"، كما أنه "**يمكن للبابا عزل الأباطرة**"، "**من حق البابا وحده استخدام الأشعرة الإمبراطورية**".

لكن أهم ما في الوثيقة من قرارات تدعم سلطان البابوية كان "**إن الكنيسة لم تخطئ أبداً في عمرها الماضي ولن تخطئ أبداً في عمرها الأتي**" وكأنه أصدر بذلك قرار بأن البابوية لم تخطئ أبداً طول العمر، فهو قرار بعدم الخطأ ولم يكن في حقيقته وعد بل غطرسة جعلت معاصريه يطلقون عليه الشيطان المقدس. "**ولأن الكنيسة الكاثوليكية صادرة من الله فهي لا تخطئ أبداً**" وهذا القرار تعقيب على السابق.

و قرار بمثابة تحقير للسلم الكهنوتي "**مندوب البابا في أي مجمع كنسي عالي أو محلي يعلو جميع الأساقفة مهما كانت درجة المندوب البابوي**"، وهو بمثابة عدم احترم لرؤساء الكنائس الأخرى، كما ضرب فيه بعرض الحائط السلم الكهنوتي (شماس – قمص – قسيس – أسقف – رئيس أساقفة – البابا).

كما أقر بأن من حقه أن يفعل ما يشاء ولا يعارضه أحد "**من حق البابا وحده أن يضم أسقفيات صغيرة إلى بعضها أو يقسم أسقفيات كبيرة إلى قسمين**". "**ومن حق البابا وحده أن يُقدم الأمراء على تقبيل قدميه**" وهو بذلك يتجاوز السلطة الروحية إلى السلطة السياسية، وإذا كان المسيح في العشاء الأخير قام بغسل أقدام الحواريين الاثنى عشر فهذا قمة التواضع، لكن جريجوري قمة الغطرسة ولا مكان هنا للمقارنة بينهما، فجريجوري يقصد إذلال الأمراء إذلالاً كاملاً. "**للبابا وحده حق تعيين الأباطرة وعزلهم**" وهذا تحصيل حاصل فمن يمنح التاج من حقه أن يسحبه.(٤)

وإذا جاز لنا أن نتصور الخطوط العامة لهذه الوثيقة،لرأينا جريجوري يعتبر الله السيد الأعظم للجميع، وهو الذي يحكم العالم من خلال المسيح، الذي يحكم هو الآخر عن طريق بطرس، الذي يحكم بواسطة البابا، وهذا الأخير يعتبر التابع الأول للإله والمسيح عن يد تلميذه بطرس، أما الأباطرة والملوك والأمراء فليسوا سوى أفصال تابعين للبابا ويمتلكون أراضيهم إقطاعاً عنه.

لم يقف الباباوات لهذا الحد بل ذهبوا لأعلى من ذلك، فقد نجحت البابوية في أن تجعل لها مكاناً سياسياً بجانب مكانتها الروحية، وذلك في الوقت الذي خلى في العرش الإمبراطوري من سلطة سياسية تسيطر عليه وتسير الأمور في الغرب. كما أن البابوية رُزقت خلال القرون الرابع والخامس والسادس والسابع للميلاد بشخصيات قوية على عرشها، فوضعت نظم للسمو البابوي بأعظم الباباوات مثل جريجوري السابع، ليو الثالث، يوحنا الثاني عشر.

لقد وضع هؤلاء الباباوات النظم والتقاليد والقوانين التي اعتمدت عليها البابوية لتدعيم نفوذها لتدعي أنها صاحبة السيادة، وذلك في صورة مجموعة من النظريات زُيفت بعضها، وبعضها أولته من الكتاب المقدس أي تأويل آيات من الإنجيل لمصلحتها السياسية وليس الروحية، بمعنى أن البابوية وضعت لنفسها مكاناً سياسياً – إن لم يفق ذلك أحياناً نفوذ الأباطرة– وليس مكاناً روحياً.

(٤) ومما يذكر هنا؛ أنه في عهد أحد الأباطرة الألمان لما عارض البابا فقال له الأخير "تذكر أن التاج كان على رأس الفرنجة وأنا جعلته على رأس الساكسون، ومن حقي أن اعيده على رأس الفرنجة ثانية".

نظرية هبة قسطنطين Donation of Constantine

قسطنطين(٥) هو حاكم الغرب ثم الشرق، ففي عام ٣١٣م عندما انتصر على خصمه ماكسينتيوس في الغرب واشتد به المرض العضال وفشل أطبائه في علاجه، نصحه البعض بأن يستدعي بابا روما سلفستر ليباركه، وبالفعل حضر البابا وباركه وشُفى من المرض، وكافئ قسطنطين البابا فتنازل له عن حكم النصف الغربي أي روما والولايات، وأتى هو للشرق ووضع عاصمته الجديدة القسطنطينية.

---

(٥) هنري قسطنطين الكبير ٢٧٥– ٣٣٧م: أول إمبراطور روماني يدخل النصرانية، ويعرف أيضا باسم قسطنطين الأول. استعاد النصارى خلال حكمه حرية التعبد وأصبحت الكنيسة النصرانية شرعية، وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية قسطنطين قديسًا. هو الذي أعاد بناء بيزنطة (وهي الآن إسطنبول في تركيا) وأسماها القسطنطينية وجعلها عاصمته.

نقل قسطنطين نفوذ الإمبراطورية الرومانية إلى المقاطعات الشرقية وبذلك أرسى أسس الإمبراطورية البيزنطية. أعطى قسطنطين الكثير من الهبات للكنيسة النصرانية، ومنها الأراضي الشاسعة التي أعطاها للكنيسة في روما. وقد بنى أول كاتدرائية في روما وهي لاتران بازيليقا كما بنى كنائس أخرى مشهورة قرب روما وفي أنطاكيا في سوريا (الآن في تركيا) وفي القسطنطينية والقدس.

الاسم الرسمي لقسطنطين هو فلايفيسو فاليريوس أوريليوس كونستانتينوس. ولد في نايسا (نيس حاليًا)، وأصبح والده كونستانتيوس إمبراطورا للمقاطعات الغربية عام ٣٠٥م. وعندما توفي عام ٣٠٦م أعلن الجيش قسطنطين خلفًا لوالده. وقد بدأ نظام الحكم المشترك بين إمبراطورين قديمين وإمبراطورين حديثين مع حكم الإمبراطور ديوكليشيان ولكنه فشل كليًا، حيث تصارع سبعة من المطالبين بالسلطة. وقد هاجم قسطنطين منافسه الرئيسي في الغرب ماكسينتيوس عام ٣١٢م. استطاع جنود قسطنطين هزيمة ماكسينتيوس على جسر ميلفيان الذي يعبر نهر التيبر. وأصبح قسطنطين مؤيدًا قويًا للنصرانية، ولكن قوس نصر قسطنطين وهو نصب وثني بني في روما مازال يمجد انتصار قسطنطين على ماكسينتيوس. أعد قسطنطين في عام ٣١٣م لاتحاد مع الإمبراطور ليسينيوس حاكم المقاطعات الشرقية، وتقابل الاثنان في ميلانو وأصدرا قوانين حكم أعطت حرية العبادة وحقوقا متساوية لجميع الفئات الدينية .وقد اعترف قسطنطين بشرعية الكنيسة النصرانية وبحقها في الحصول على الملكية؛ كما أرجع للنصارى الملكية التي سلبت منهم. قسم قسطنطين وليسينيوس الإمبراطورية لأكثر من ١٠ سنوات. ونتج عن صراعهما في عام ٣٢٤م حربًا ونصرًا لقسطنطين الذي أصبح فيما بعد الحاكم الوحيد. وقد جعل قسطنطين القسطنطينية عاصمته ومركزًا للحكومة الرومانية.

وفي عام ٣٢٥م ترأس قسطنطين أول مجلس عالمي للكنيسة النصرانية .وقد اجتمع المجلس الكنسي في نيقية، وهي الآن في شمال غرب تركيا، وذلك لمعالجة مجادلات بين النصارى خاصة مع العقيدة الآريوسية التي كانت تعتبر السيد المسيح مختلفًا عن الإله. وقد حضر أكثر من ٣٠٠ مطران من أنحاء الإمبراطورية حيث أدان المجلس الكنسي الآريوسية ووضع فرمانا للاعتقادات الأساسية سمي بعقيدة نيقية. عُمِّد قسطنطين نصرانيًا على فراش الموت. وانتقلت الإمبراطورية إلى أولاده قسطنطين وكونستانس وقسطنطين الثاني.

الواقع أن؛ النظرية كانت نكسة للبابوية أكثر منها تدعيم، لأن قسطنطين لا يملك الإمبراطورية لكي يتنازل عنها لشخص آخر فهو يحكم ولا يملك، فمسألة التنازل غير شرعية – إذا كانت تمت بالفعل كما تقول الرواية– فالإمبراطورية ليست إقطاع ومن لا يملك "قسطنطين" منح من لا يستحق "البابا"، أضف إلى ذلك أن البابا ليس له سلطاناً سياسياً بل روحياً.

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، اكتشفت البابوية أن الإمبراطور هو الذي منح البابا حكم الغرب ومن حقه أن يجرد البابا من هذا الحكم، فمن يمنح هو الأعلى والإمبراطور هو السيد المانح، ولذلك أسقطت البابوية هذه النظرية التي كانت أول النظريات التي تمارس النفوذ السياسي على الأباطرة.

نظرية التخصيص "السيفين" Particularization

فهناك شيء يخص القيصر "الإمبراطور" وشيء يخص الله "الكنيسة"، وهي من نظريات التأويل أي تفسير آية من الكتاب المقدس بما يتفق مع المصلحة والهوى. فذات مرة جاء اليهود وسألوا المسيح "يا معلم هل يصح أن ندفع الجزية لقيصر؟"، والمسيح يعلم بخبثهم سواء أجاب بنعم أو لا سوف يضروه، فهو يعرف في نفسه أن نعم "ادفعوا" هي إذلال لليهود وتفرض على غير الرومان وهي ضريبة الرأس لأقل من المواطن العادي، وكيف ذلك وهو نبي يرضى بالإذلال وهو يقول أنه قادم لإنقاذهم من الإذلال، ولو قال لا "لا تدفعوا" سوف يثير الرومان لأنه بذلك يحرض ضدهم اليهود.

وهنا؛ أجاب المسيح قائلاً: "لما تجربونني يا أولاد الأفاعي، أروني معاملة الجزية" فلما أمسك بالـ ديناريوس الروماني[٦] قال لهم "صورة من هذه" قالوا "صورة القيصر (الحاكم)" فقال "إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر" ثم أضاف "وما لله لله" أي أنه يعلم نيتهم ولماذا جاءوا إليه.

---

(٦) دِينَارْيوس: عملة فضِّيَّة استخدمها الرُّومان أثناء عصور الجمهوريَّة والإمبراطوريَّة، وأصدرها الرُّومان لأوَّل مرَّة حوالي سنة ٢١١ ق.م. واختفى الدِّيناريوس من التَّداول في القرن الثالث الميلادي. وحل محل الدِّيناريوس الفضِّي آنذاك ديناريوس مضروب من البلُّون وهو سبيكة مصنوعة من النُّحاس، ومقدار قليل من الفضَّة.
كانت قيمة الديناريوس في البداية تعادل ١٠ – ١٦ قطعة من العملة النُّحاسيَّة المسمَّاة آس. أمَّا العملة الذَّهبيَّة المعياريَّة، في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة فكانت الدِّينار الذَّهبي. وحجمه يقارب حجم الدِّيناريوس، ويعادل ٢٥ من الديناريوسات.

في الحقيقة؛ لم يكن المسيح يقصد مبدأ سياسي فهو ليس ملكاً ولا مشرعاً سياسياً إذن فهو لم يرسي مبدأ أو نظرية، ولكن الكنيسة فيما بعد ابتداءً من القرن الرابع الميلادي أخذت هذه العبارة وأولتها، فقيصر يختص بكل ما يتعلق بالماديات، وما يخص سيادة الأرواح يخص الكنيسة "الله"، ورتبوا أن الشيء المادي متدني، والكنيسة تمثل الروح والإمبراطور يمثل الشيء المادي، إذن فالإمبراطور متدني والكنيسة بذلك أعلى من الدولة لأن الكنيسة تختص بهدي الأرواح. وذلك هو التأويل وهذه النظرية تسمى بنظرية السيفين أي "السيف الروحي" و "السيف الزمني".

نظرية سمو الكرسي الروماني Highness of Roman Chair

ذات يوم كان المسيح يجلس مع الحواريين فقال لهم: "من أنا بين الناس؟" فقال بعضهم بعضهم يقولون إيليا "أحد أنبياء بني إسرائيل"، وبعضهم قال حزقيال "أحد أنبياء بني إسرائيل"، ثم قال سمعان "أنت المسيح أحد أبناء الله الحي"، فقال المسيح "من الآن يا سمعان تُسمى بطرس[٧] وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وكل ما تربطه (تقره) على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحله (ترفضه) على الأرض يكون محلولاً في السماء".

وقد عُرف بطرس منذ هذه اللحظة بأنه أمير الرسل "زعيم الحواريين"، وأصبحت كنيسة روما أعلى الكنائس كعباً وعلاقتها بالإمبراطورية كذلك لأن مؤسسها بطرس. لقد أعطاه المسيح سلطة الربط والحل على الأرض مؤيداً بقوة السماء، فأعمال بطرس كلها مصدق عليها تماماً وذلك يجري على خلفاء بطرس أيضاً.

لكن نظرية سمو الكرسي الروماني وسلطانه على باقي الكنائس تطورت لتشمل الدولة ومثال ذلك؛ قرار الحرمان الصادر من جريجوري السابع إلى الإمبراطور هنري الرابع (١٠٥٠–١١٠٦م) جاء فيه "وبسلطة الربط والحل المخولة لك من السماء والمورثة لي أحل هنري الرابع بن هنري الثالث من ..... واحرمه".

وهكذا؛ كان استخدام السلطة التي قالها المسيح يجري على هذا النحو.

---

(٧) بطرس: لغة أرامية وتعني الصخرة

نظرية الشمس والقمر "البابوية والإمبراطورية" Sun and Moon

لقد استقر في ذهن البابوية منذ زمان بعيد يعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، ودنت قطوفه في القرن الحادي عشر أيام البابا جريجوري السابع، أن الله يدبر أمور هذا العالم عن طريق الأقنوم الثاني في الثالوث "المسيح" الذي يتصرف فيه كيف يشاء بواسطة بطرس، الذي يحرك كل شئونه من خلال البابا، الذي لم يعد منذ عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) مجرد خليفة بطرس، بل نائب المسيح على الأرض بمقتضى نظريته عن الشمس "البابوية" والقمر "الإمبراطورية".

فخلال القرن الثالث عشر الميلادي البابا أنوسنت الثالث قال: "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس، كذلك فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية". وفحوى هذه النظرية أن القمر جرم مظلم (الإمبراطورية) يستمد نوره من الشمس المضيئة (البابوية)، فالإمبراطورية تستمد سلطانها من البابوية، والإمبراطور بدون البابا لا يساوي شيئاً ولا سلطان له، وتظل الإمبراطورية طوال عمرها في حاجة للبابوية لتأيدها ولتصبح هناك سلطة كاملة للبابوية.

وآمنت البابوية إيماناً لا يتطرق إليه شك انه وفقاً لذلك لابد أن يكون هناك سيد واحدا لهذا العالم لا يشترك في حكمه أحداً، وأن البابا هو ممثل هذا السيد على الأرض، وأن الصلاح كل الصلاح في الخضوع تماماً لهذا البابا، طريقاً إلى ملكوت السموات ورفقة المسيح. ومن ثم فإن أي سلطة أخرى ترى في نفسها القدرة أو تساورها الرغبة في أن تنافس البابوية أو تتولى عملاً من أعمالها، تضع نفسها خارج الشرعية، وتحل بها اللعنة وتطاردها قرارات الحرمان الكنسي، وبالتالي فإن أي نجاح يمكن أن تحققه هذه السلطة الأخرى وهي هنا بالطبع السلطة الزمنية، يعد تحدياً صارخاً للسلطة الروحية التي هي دون شك البابوية.

واقع الأمر؛ أن البابوية استخدمت أولاً نظرية هبة قسطنطين ثم أسقطتها، واعتمدت بعد ذلك على نظرية التخصيص، والآن جاءت بنظرية تمحي كل النظريات البابوية في صيغة سؤال؛ من له السبق في الوجود الإمبراطورية أم البابوية، وبالطبع الإمبراطورية منذ عام ٢٧ ق.م فالبابا بطرس أول قديس ورئيس لكنيسة روما عام ٦٠ بعد الميلاد، والأباطرة هم من رفعوا ذراعيهم وأغدقوا على الكنيسة كل ما تملك من أموال وأراضي، ومن قبل فتحوا ذراعيهم لانتشار المسيحية، وبحق السبق في الوجود تكن الأفضلية في السمو.

ومن الملاحظ؛ أن مجموعة نظريات السلطة البابوية منذ القرن الرابع الميلادي وفي خلال العصر الوسيط بعضها مزيف والبعض الآخر تأويلي لمصلحة البابوية، مثل النظرية البطرسية باعتبار بطرس أمير الرسل، أما نظرية ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ونظرية الشمس والقمر، فهذه النظريات تدعم السمو البابوي السياسي وكلها خاصة بمن صاحب الكعب الأعلى.

ومن جهة أخرى؛ استخدمت الدولة بعض هذه النظريات مثل هبة قسطنطين والفصل بين الدين والدولة، والنظرية التي دعمت رأيها وهي نظرية السبق "الأسبقية". لقد وضعت البابوية في القرن الحادي عشر والثاني عشر للميلاد قوانين وأضافتها لمجموعة قوانين جستنيان(٨)، ذلك بغرض تدعيم نفوذها السياسي، كما وضعت جامعة كلونيا في إيطاليا قوانين تدعم السيادة الإمبراطورية على البابوية، فكانت هناك جامعات تنشأ في حضن الكنيسة فتصبح جامعات كنسية مثل جامعة باريس كانت تؤيد الكنيسة،ورأينا جامعة كلونيا تؤيد الإمبراطورية، فنشط ذلك الأمر وحدث التنافس وكانت الجامعات مركز للصراع البابوي الإمبراطوري.

(٨) يمكن إرجاع أصول معظم مجموعات القوانين الحديثة إلى المجموعة الشهيرة التي أمر الإمبراطور الروماني جستنيان بإعدادها في القرن السادس الميلادي. وقد تولت مدونة جستنيان تحديث جميع القوانين الرومانية وتلخيصها، وكانت تسمى كُوْرْبَسْ جُوْرِسْ سِيْفِيلِيسْ، ومعناها مجموعة القانون المدني. ولهذا السبب عُرفت النظم القانونية التي استنبطت أحكامها من القانون الروماني القائم على التشريع والتقنين باسم نظم القانون المدني، ويتعين عدم الخلط بين هذا الاستعمال لمصطلح القانون المدني واستعماله للتمييز بينه وبين مصطلح القانون الجنائي.

المبحث الرابع

التقليد العلماني الألماني فوق المائدة البابوية الإمبراطورية

"لن يمارس العنف تحت رداء الدين"

الإمبراطور هنري الرابع

كان المرض الثالث داخل الكنيسة – كما سبق الذكر– هو مشكلة التقليد العلماني، والتقليد أي التعيين وقيام العلمانيين وهم الملوك والأمراء بتعيين رجال الدين في الكنيسة، وقد رفُض هذا الأمر واعترضت البابوية عليه لأنه من حق الكنيسة وحدها تعيين رجال الدين وليس هناك داعً لتدخل الدولة. وبذلك بدأت المشكلة وظهرت فمن يعين رجل الدين، وكان المقصود هو تعيين كبار رجال الدين أصحاب السلطة والنفوذ في المجتمع، والمعني الكنائس الكبيرة وليست التي توجد في الأقاليم.

وهكذا؛ ظهرت راية التقليد العلماني في الأفق مكتوباً عليها مَن يعين مَن! ثم اعتلى عرش البابوية في روما عام ١٠٧٣م البابا جريجوري السابع وهو من أشهر باباوات العصور الوسطى وأشهر من طبق نظرية السمو البابوي، وأصدر ثلاث قرارات:

- عدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين، عدم الصلاة ورائهم أو الاشتراك في قداس معهم. وذلك في الكنيسة الغربية فقط
- عدم التعامل مع رجال الدين الذين حصلوا على مناصبهم بالشراء.
- يُحذر أن يقدم الإمبراطور أو أمير أو ملك على تعيين رجل دين في كنيسة معينة.

وكان هذا تصادم بين السلطة والدين للمصلحة، فقد تصادف أنه على العرش الإمبراطوري في ذلك الوقت الإمبراطور هنري الرابع، وكان هناك أسقفيتين " فيرمو **Fermo** وسبولتيو **Spelete**" بجانب روما وقد مات أساقفتهم، فأقدم الإمبراطور هنري وهو ملك ألمانيا في الأساس بجانب كونه إمبراطور روماني على تعيين أسقفين جديدين لهاتين المدينتين وكانتا ضمن أراضي السيادة البابوية، بالإضافة إلى أنه أقدم على طرد أسقف ميلان الذي كان قد عينه البابا، وعين بدلاً منه أسقفاً جديداً، وتلك كانت الحادثة التي فجرت الصراع بين الإمبراطور والبابا.

فقد حدث هذا في الوقت الذي يريد فيه البابا جريجوري ممارسة قراراته، لذلك بعث البابا برسالة في ٨ ديسمبر ١٠٧٥ لهنري الرابع أعلن له فيها "**أنه يجب أن يعي ويطيع تعاليم الكنيسة الرسولية**" كما أشار في رسالته إلى تجاهل هنري القرارات الخاصة بوضع التقليد العلماني بقوله "**إن هذا المرسوم يجدر أن يلقى القبول وأن يطاع لا من جانبك وحدك ومن جانب رعايك، بل من جانب كل الأمراء وشعب الكنيسة الذي يعبد المسيح**". كما زود جريجوري الأسقف الذي بعثه لهنري بتهديدً شفهياً بالحرمان الكنسي والعزل إذا لم يعلن امتثاله للأوامر البابوية.

بلغ الغضب بهنري مبلغه إزاء هذا الإنذار، وتملك عليه الحنق كل سبيل، فأقدم دون ترو على عقد مجمع من أساقفة ألمانيا في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٠٧٦ في مدينة ورمز **worms** وبكل الانفعال الغاضب أصدر الحضور قرارهم بعزل جريجوري السابع من منصبه وإدانته.لقد كانت رسالة البابا بسيطة ورد عليها الإمبراطور هنري الرابع بكتاب من أربع أو خمس صفحات تعد قاموس يمتلئ بالسبائب والشتائم بدأها بقوله: "**من هنري الملك الذي لم يصل إلى عرشه اغتصاباً وإنما بإرادة الله المقدسة، إلى هيلدبراند الذي لم يعد منذ الآن بابا بل مجرد راهب منافق**" وهو هنا يؤكد حقه باعتباره ملك وإمبراطور ليس من قبل البابا ولكنه من قبل السماء والناس، وجريجوري راهب مزيف وبذلك ينفي عنه صفة البابوية وقل ما يقوله باطل.

واختتمها بقرار عزل جريجوري قائلاً: "**لما كان قد صدر قرار بإدانتك على يد أساقفتنا وبموافقتنا .... فلتتنح إذن عن الكرسي الرسولي الذي اغتصبته، ولتدع غيرك يعتلي عرش القديس بطرس، فلن يمارس العنف تحت رداء الدين، بل سوف يعلم العقيدة ألحقه للقديس بطرس. أنا هنري.. الملك بإرادة الرب، أقول لك ومعي كل أساقفتي، تنح ... تنح.. ولتكن ملعوناً على مر الدهور.** "

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى الأسلحة التي كان هنري يرتكن إليها في هذا النزاع وهي الجيش الإمبراطوري، ودعم بعض رجال الدين و الأساقفة، والاعتماد على القانون الروماني الذي يمجد الإمبراطور و سلطته. أما البابا فقد كان يمتلك في يده عطف الرأي العام المسيحي في الغرب الأوربي لأنه الأب الروحي لكنيستهم، بالإضافة إلى الأسلحة الروحية التي يمتلكها كالحرمان الكنسي و العزل، ناهيك عن تأييد عدد من رجال الكنيسة و الأساقفة المخلصين للإصلاح الكنسي، وتأييد رجال الأديرة الكلونية ،و تأييد بعض الأمراء و الحكام العلمانيين.

أما بالنسبة للرسالة التي كتبها أساقفة ألمانيا إلى الأخ هيلدبراد ورسالة هنري الرابع، فقد تُليت هذه الرسائل في مجمع الصوم الكبير لعام ١٠٧٦ في روما فقوبلت بعاصفة هوجاء، ولقي المندوبون الألمان مصرعهم، واصدر المجمع قراره بحرم وإيقاف رئيس أساقفة مينز وكل الذين أيدوه.

أما فيما يختص بالإمبراطور هنري الرابع، فإن جريجوري قد أجابه على رسالته بخطاب مفتوح إلى القديس بطرس[1] وقد مات الأخير ونحن في سبعينيات القرن الحادي عشر، فالكلام موجه لبطرس ولكنه يقصد هنري الرابع يقول فيه: " **أنت تعرفني فلم أكن أريد منصب البابا، ولكن بمقتضى سلطة الربط والحل المخولة لك من المسيح وباعتباري حلفاً لك، فإني أجرد هنري**

(١)القديس بطرس (....م ؟ ـ ٦٤): أحد أشهر حواريي المسيح عيسى عليه السلام، وكان زعيمًا لجماعة النصارى الأولى في القدس وشخصية من الشخصيات البارزة في العهد الجديد. واسمه الأصلي سمعان ولكن المسيح سمّاه بطرس، وهي كلمة يونانية تعني الصخرة، ويذكر في العهد الجديد أحيانًا باسم سمعان بطرس. ووفقا للاعتقاد الذي تناقلته الأجيال النصرانية، اعتقد أتباع الكنيسة الرومانية أن المسيح قد اصطفى بطرس ليكون أول رأس لكنيسته؛ وبذا يكون قد رسَّخ مكانة البابا من خلال بطرس.

حياته المبكرة .وُلد بطرس في بيت صيدا وهي بلدة في فلسطين، تقع على الضفة الشرقية لنهر الأردن، وهي البلدة نفسها التي ينتمي إليها الحواري فيلبي، وكان الحواري أندراوس أخًا لبطرس. ثم انتقل بطرس فيما بعد إلى كفر ناحوم على ضفة بحيرة طبرية، حيث اتخذ من صيد السمك حرفة له. وتصوره القصص التي سردت عنه في العهد الجديد بأنه رجل رقيق متحمس جواد وصعب المراس. وقد تزوج ومن المحتمل أن تكون له ذرية.

حياته حواريًا .تركز قصص العهد الجديد على مكانة بطرس وأهميته في الجماعة النصرانية باعتباره صديقًا وفيًّا للمسيح وأتباعه. تكلم المسيح مع بطرس عن بعض الأمور الدينية. وعندما سأل المسيح حوارييه عن نفسه، أجاب بطرس قائلاً: أنت المسيح (مرقص ٨: ٢٩). وتتحدث الأناجيل بأن بطرس لم يفهم المسيح ودلالته، وقد أنكر بطرس معرفته بالمسيح ثلاث مرات وذلك قبل صلبه، وقد انتحب بطرس فيما بعد أسفا وندما على ذلك (مرقص ١٤: ٧٢).

ومن المحتمل ؛أن يكون بطرس قد قام بدور صانع السلام بين كل من اليهود المحافظين الذين يتحدثون الآرامية والذين كان يتزعمهم جيمس (يعقوب) وأولئك اليهود الأكثر تحررًا الذين يتحدثون اليونانية والذين كان يقودهم بول. ويسمى بطرس في بعض الأحيان رسول المسيح إلى اليهود.

سنواته الأخيرة .يقال إن بطرس ترك القدس هو وزوجته وأصبح داعية متجولاً. ووفقًا للروايات التي تناقلتها الأجيال النصرانية، صار أول أسقف لمدينة أنطاكية السورية، كما كان أول أسقف لروما، والتي من المحتمل أن يكون قد لقى حتفه فيها، إبان اضطهاد الإمبراطور نيرون للنصارى في الفترة الواقعة بين عامي ٦٤ و٦٨م.

لم يحفظ التاريخ أية كتابات تدل دلالة قاطعة على أن كاتبها هو بطرس .وتصف الكتابات التي دونها بول عن بطرس أنه كان مصدرًا للروايات الشفهية عن المسيح. ويتضمن العهد الجديد مقالتين تسميان رسالتي بطرس؛ أولاهما تحث مجموعة من النصارى الحديثي العهد بالنصرانية أن يظلوا متمسكين بعقيدتهم في أوقات الاضطهاد والمضايقات؛ ومن المحتمل أن يكون قد كتبها بطرس بالفعل .أما الرسالة الثانية فقد كتبها مجهول في وقت ما خلال القرن الثاني للميلاد.

ولم يكد يأتي عام ٤٥٠م حتى اعتقد كثير من النصارى أن البابا ما هو إلا خليفة لبطرس. كما اعتقدوا بأنه كان قديسًا؛ ولذا يحتفون باليوم التاسع والعشرين من يونيو على أنه يوم عيد القديس بطرس.

الملك بن هنري الإمبراطور .. الذي تمرد على كنيستك، من حكم المملكة الألمانية وإيطاليا، وأحللت كل رعيته المسيحية من يمين الولاء الذي أقسمته أو سوف تقسمه له، وحرمت على أي فرد أن يقوم بخدمته كملك، وبصفتي ممثلاً لك فقد كبلته بقيود اللعنة".

وبذلك؛ قد جرده من سلطته كإمبراطور واعتبره ملك وحرمه من رحمة الكنيسة، ولعنه وحرم على أي شخص أن يقوم بخدمته، وهذا معناه تحريض الشعب الروماني لعزل الملك لكي يحظوا برحمة الكنيسة، فعليهم أن يتخلصوا من هنري الرابع الملعون. وهنا بدأ الصراع الذي استمر ٣٠٠ سنة كاملة بين السلطة السياسية "الإمبراطور" والسلطة الروحية "البابا".

في الحقيقة؛ هذان الرجلان عزل كل منهما الآخر فمن يفوز الإمبراطور أم البابا، من المنطقي أن يفوز الإمبراطور حيث يمكنه بجيشه عزل البابا، ولكنه في هذه الحالة حدث النقيض، فرسالة البابا دفعت بألمانيا إلى حالة من الفوضى العارمة، تمثلت في تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية ودفعت بالأساقفة المرتعشين إلى أن يهرولوا إلى البابا طالبين صفحه وغفرانه، وكان إضفاء صفة القداسة على الثورة في ألمانيا، عاملاً هاماً في تشجيع مختلف العناصر، أفراداً وجماعات في إظهار سخطها.

وامتدت الثورة في مختلف أنحاء ألمانيا بصورة واسعة عجز معها هنري عن التصدي لها، وعقد الأمراء الألمان مؤتمراً في مدينة تريبور **Tribur** حضره مندوبان عن البابا، واضطر هنري على أثره أن يلعق كل ما قاله آنفا، ووعد بأن "**يرعى في كل شيء الطاعة الواجبة للكرسي الرسولي و... البابا جريجوري**". وكان عليه أن يمضي أيامه الآتية في الدير حتى يصفو عنه البابا، وأضاف الأمراء أنه إذا لم يتمكن هنري حتى الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسي الصادر ضده، فإنهم يعلنون آنئذ عدم اعترافهم به كملك من بعد.

ورتب الأمراء أمورهم على أساس أن يعودوا للاجتماع ثانية في فبراير في مدينة أوجزبرج **Augsburg** حيث وجهوا الدعوة إلى البابا لرئاسة هذا المؤتمر، بحيث إذا ما تقرر عدم صلاحية هنري الرابع للبقاء على عرشه، اختار المؤتمرون ملكاً بديلاً. الغريب أن هنري نفذ كلام جريجوري السابع مجبراً، فالطبيعي أن يوجد تحت يد الإمبراطور السلاح الرهيب؛ الجيش والخزانة فبدون ذلك لا يصبح ملك، والبابا أخذ الأمراء في صفه فاضطر هنري إلى ما فعله وذهب للدير.

وفي الدير انتظر هنري الغفران ومرت الأيام ثقيلة متباطئة مميتة حتى قاربت الشهور الست على الانتهاء، فقرر الإمبراطور الذهاب ليأتي بالعفو والغفران، وفي نفس الوقت أرسل الأمراء للبابا ليحكم بينهم وبين هنري، ولكي يفوت الإمبراطور تلك الفرصة على الأمراء خرج من ألمانيا إلى روما "إيطاليا" في سرية تامة مصطحباً معه زوجته المخلصة بيرثا **Bertha** ووليدهما الصغير وقلة قليلة من خاصته ، وولوا وجوههم شطر برجندي **Burgundy** وفي نفس الوقت خرج البابا من روما قاصداً ألمانيا،إلا أنه سمع بمغادرة الإمبراطور لألمانيا فتصور أنه خرج ليلقي القبض عليه، فارتد في فزع إلى قلعة كانوسا **Cancssa** الحصينة في منطقة تسكانيا في شمال إيطاليا والتي كانت تحكمها الأميرة ماتيلدا وهي صديقة البابا.

نحن الآن في نهاية ديسمبر ١٠٧٦ وأوائل يناير ١٠٧٧، وشاء قدر هنري أن يكون شتاء العام قارصاً على غير العادة هطلت ثلوجه حتى سدت منافذ الجبال، وغطى الجليد جبال تسكانيا، وكانت الخيول لا تستطيع السير على الجبل، فدفعت الإمبراطورة ووصيفاتها بأجسادهن على الجليد، وزحف الإمبراطور وخلال ثلاثة أيام ظل يدق الباب ولا يفتح له وكأن البابا قلبه أشد قسوة من جبال تسكانيا، وعندما تذكر البابا أنه خليفة المسيح على الأرض فتح الباب، ثم وقع الإمبراطور على قدمي البابا وقبلها وغسل بدموعه آثامه فغفر له البابا، وعُرف ذلك بإذلال كانوسا أشهر إذلال في التاريخ.

وقد وصف جريجوري ما حدث بنفسه في رسالة بعث بها إلى أمراء ألمانيا في نهاية يناير ١٠٧٧م قال فيها: " **طيلة ثلاث ليال سويا.. والإمبراطور يقف أمام باب القلعة، وقد تجرد تماماً من كل شعارات الملكية.. حافي القدمين، يستر جسده برداء رث خشن تنهمر من مآقيه الدموع تغسل وجنتيه، يطلب الصفح والغفران**".

في الحقيقة؛ لم يكن انتصار كانوسا نصراً كاملاً للبابوية ولا هزيمة كاملة للإمبراطورية، فقد كانت قمة الصعود للجبل هي قمة الخسران والخسارة، ففي وقت تحقيق البابوية لهذا النصر لم يكن حاسماً ولكنه نصر على الإمبراطورية في كانوسا، فأدرك الأمراء والملوك أنهم أمام قوة طاغية ومتعسفة وأن مقامهم كمقام هنري الرابع، ومن جهة أخرى؛كان هذا نصراً كبيراً للبابوية على الإمبراطورية، وقد اتخذت الأجيال التالية من حادثة كانوسا رمزاً عملياً على خضوع الدولة للكنيسة.

يجب أن نضع في الاعتبار؛ أن السبب الرئيسي الذي من أجله ارتحل هنري إلى كانوسا، يكمن في سعيه إلى إبعاد جريجوري السابع بعيداً عن ألمانيا،يضاف إلى ذلك أن هنري لم يكن ليقوم برحلة القنوط هذه، إلا بعد أن تأكد إليه أن الأمراء المتمردين يبحثون عن فرصة مواتية يرفعون فيها راية العصيان مؤملين تحقيق شيء من النجاح.

وقد اتضح هذا الاتجاه على الفور؛ ذلك أن العفو عن هنري صدر من قبل البابا في كانوسا، لم يمنع هؤلاء الأمراء من التصرف بملء إرادتهم ودون مراعاة لهذا القرار. فعندما عاد هنري ومعه قرار الغفران رفضه الأمراء وحجتهم أن هنري هو الذي ذهب وأتي بالغفران، والمسألة أنه لو ظل في الدير لما كان يأتي الغفران له، أو كان البابا سيأتي لألمانيا ويأتي الملك كمتهم، فالإمبراطور أنقذ نفسه م هذا الوضع، ولذلك غضب الأمراء وعادوا لممارسة حقهم القديم في اختيار الملك الألماني.

وفي مارس ١٠٧٧ عقد الأمراء اجتماعاً حضره مندوبان عن البابا وافقا على قراراته، أُعلن فيه عزل هنري واختيار رودلف السوابي **Roudolph** دوق سوابيا ملكاً على ألمانيا. ولمدة ثلاث سنوات (١٠٧٨– ١٠٨١) والحرب الأهلية دائرة في ألمانيا بين هنري الرابع ورودلف السوابي المختار من الأمراء ملك غير شرعي. وتلك كانت فرصة البابوية عندما تجد حرب أهلية داخل ألمانيا، وكأن الملوك يلجئون للأهالي للحكم بينهم في هذه القضية فتصبح حرب أهلية. أما جريجوري السابع؛ فقد أعطى لنفسه حق التنبؤ فقال خلال ثلاث سنوات يقتل هنري الرابع وترجح كفة رودلف السوابي ورفقائه ويصبح ملكاً.

ومما يذكر هنا؛ أن نبؤة جريجوري تحققت ولكن على عكس ما قد تمنى، فقد قُتل رودلف وبقى هنري وجاءت ساعة الحساب، وقاد الأخير جيوشه لإيطاليا وظل هناك ثلاث سنوات (١٠٨٢– ١٠٨٥) يحاصر روما ولا يسمح لجريجوري بأن يغادر روما، وكأنه يأخذ بالثأر فكل يوم قضاه هناك عند كانوسا في مقابل عام كامل. ولم يجد البابا وسيلة فاستدعى حلفاؤه النورمان لإنقاذه بعد أن هجر روما في صحبة ثلاثة عشر كاردينالا،حيث انسحب لقلعة القديس إنجيلو، فلما أدرك هنري ذلك غادر روما متوجهاً صوب ألمانيا، ولم يجد النورمان هنري ليحاربوه فأباح قائدهم روبرت جويسكارد النورماني [٢] المدينة لهم ، فدمروا روما وجردوها سلباً من كل ما فيها، واخذوا البابا معهم جنوباً إلى مونت كاسينو.

(٢) يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة النورماندية، عمل في البداية كقاطع طريق أو زعيم ثم انضم إلى عملية فتح " أبولية" التي كان يقودها شقيقه " دروجو". وفي (سنة ١٠٥٧ م) اختاره الزعماء النورمان أميراً على" أبولية" ثم استولى على" ملفي" سنة ١٠٧٣ م كما استولى على " سالرنو" (سنة ١٠٧٦ م) كما قام بحملة ضد بيزنطة (١٠٨١ – ١٠٨٥ م).

وكان قد بقى لجريجوري من عمره أشهر معدودة، قضاها يأكل قلبه ويجترأ أحزانه، وهو يرى كل صروح حياته الحافلة تتهاوى من حوله، إلا أن لم يفقد في لحظة المأساة شجاعته، فعقد مجمعاً للإصلاح الكنسي في اللحظات الأخيرة من حياته في سالرنو وهناك ودع دنياه في ١٠٨٥ وكانت آخر كلماته التي نطبق بها قبل الرحيل " **لقد أحببت العدالة وكرهت الظلم .. ومن أجل هذا أموت في المنفى**".

لقد فشل جريجوري السابع في تحقيق أهدافه، لأن أهدافه لم يكن لها أن تتحقق، غير أن الملكية الألمانية والإمبراطورية بعد وفاته، لم تعد مطلقاً لما كانت عليه قبل أن يأتي، أما البابوية قد رُفع من قدرها روحياً وزمنياً. وإذا كان جريجوري السابع قد مات، فإن الصراع حول مسألة التقليد العلماني لم يتوقف بموته، ففي عام ١١١١م دار المفاوضات بين الإمبراطور هنري الخامس (١٠٨١–١١٢٥م) والبابا بسكال الثاني **Paschal II** (١٠٩٩– ١١١٨م) وانتهت باتفاقية تضمنت اعتراف البابا بالتنازل عن الأراضي والحقوق الإقطاعية التي حصلت عليها الكنيسة منذ أيام شارلمان حتى تاريخه (حوالي ٣٠٠ عام) مقابل تخلي الدولة عن تعيين رجال الدين في الكنائس الكبرى.

وقد افتتح البابا اعترافه هذا بقوله: "**الكهان جميعهم ممنوعون بمقتضى الكتاب المقدس والقوانين الكنسية من أن يشغلوا أنفسهم بالشئون الدنيوية**"، وهو اعتراف صريح بالحال الذي وصل إليه رجال الدين في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد تحولوا من رجال اكليروس إلى رجال أعمال، وتجار، وجنود عسكريين، ومحامين، ومالكي أسواق، وذوي مصالح وظيفية واقتصادية في المدن، والدوقيات، والكونتيات، والقلاع.

ومن الملاحظ؛ أن هذا القرار يعني حرمان الاكليروس من كل الممتلكات الإقطاعية التي تسيطر عليها الكنيسة، كما يحرم الملك من كل سلطة تبيح له التدخل في اختيار الأساقفة. والطريف أن الإمبراطور صدق عليها ورجال الدين رفضوا التوقيع، فقد رفض الأساقفة هذا المشروع لأنه سيكلفهم كل ما كان لهم من ممتلكات وضياع وثروة وبالتالي الجاه والنفوذ. فأعلن الأساقفة الألمان والإيطاليون المجتمعون في كنيسة القديس بطرس بروما عصيانهم وتمردهم على كل ما جاء في مشروع هذا الاتفاق، وفشلت الاتفاقية.

لقد كان باسكال الثاني يمثل بمشروعه نغمة شاذة وسط هذا اللحن الإقطاعي الذي لابد أن يظل البابا واكليروسه يعزفون عليه حتى تصفق له السلطة الزمنية وهي كارهة.

أما مشكلة التقليد العلماني في ألمانيا؛ فقد تم التوصل إلى إنهاء الخلاف القائم حولها في الاتفاقية التي عرفت باتفاقية ورمز، بعد أن نجح الأمراء الألمان والأكليروس ومندوبو البابا في وضع الأسس المعينة للتخلص من هذه المشكلة في الاجتماع الذي ضمهم جميعاً في مدينة وورمز عام ١١٢٢ فقد اعترف هذا الاتفاق صراحة بالطبيعيتين الروحية والزمنية لمنصب الأسقف، ونص الاتفاق على أن يتم اختيار الأساقفة في ألمانيا طبقاً للقانون الكنسي، مع حضور الإمبراطور أو ممثله عملية التقليد. وفي حالة قيام نزاع حول إحدى الأسقفيات الشاغرة، فإن الملك بعد أن يستشير رئيس الأساقفة وأساقفة المنطقة، يعطي موافقته وتأييده لمن يراه جديراً بهذا المنصب.

وكان على الأسقف بعد اختياره أن يتلقى شعاراته وصولجانه من الملك، ويتبع ذلك أن يقسم يمين الولاء شأن أتباع الملك وأفصاله، وتأتي المرحلة النهائية عندما يتلقى الأسقف الجديد رسامته على يد رئيس الأساقفة فينال بذلك الجانب الروحي بعد أن حصل من الملك على الجانب الزمني.

ومما لا شك فيه؛ أن هذا الصراع الطويل بين هنري الرابع والخامس من ناحية والبابوية من ناحية أخرى، كان باهظ التكاليف بالنسبة لمركز الملكية الألمانية وسلطاتها، فولاء الكنيسة الألمانية قد تقلص جزئياً وتحول إلى البابوية، كما قدم ذلك الصراع إلى الثورات الداخلية الأهلية في ألمانيا مزيداً من الاضطراب استطاع أمراء الإقطاع الألمان وحدهم دون الملكية الإفادة منه.

أما الكنيسة؛ فراحت تحقق ذاتها في إطار الاهتمامات الشخصية للنبلاء، وتبحث عن المساندة الكاملة من روما، والغريب أن ملوك ألمانيا خلال صراعهم الطويل مع البابوية درجوا على شراء تأييد رجال الاكليروس، بإعطائهم مزيداً من المنح والهبات، ولم يكن ذلك قاصراً على رجال الدين وحدهم، بل امتدت هذه الاقطاعات إلى الأمراء أيضاً، ولا ريب أن هذه السياسية كانت مستقبل كئيب للملكية الألمانية.

أما البابوية؛ فالحقيقة أنها خرجت من هذا الصراع قوية الجانب موهوبة السلطان، وعلى الرغم من أنه لا يمكن القول أنها قد نجحت تماماً في فرض برنامجها الإصلاحي فيما يتعلق بالسيمونية وزواج رجال الدين، إلا أنها خطت في ذلك السبيل خطوات بعيدة، على حين نجدها قد أفلحت في التخلص من التقليد العلماني. وإذا كانت البابوية لم تستطع أن تحرر الكنيسة من سلطان الدولة، فإنها من ناحية أخرى قد حققت سيادتها على الكنيسة.

على أن كان لا يزال هناك أمام البابوية طريق طويل وشاق من أجل تحقيق سموها ورفعتها في العصور الوسطى، ولكنها استطاعت الآن أن تقضي على ادعاءات الملوك بأنهم ممثلون لله في الأرض، وأعلنت بكل الإصرار ادعاءاتها هي بالسيادة الزمنية.

خريطة (٣)

جيرمانيا **Germania** القديمة[٣]

(٣) خريطة (٣) متاحة بشبكة الإنترنت على الرابط:

http://www.lib.utexas.edu/maps/historical/ancient_germania.jpg [cited in 19/3/2008]

المبحث الخامس

الحقبة الهوهنشتاوفنية

في

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

" لقد تملكنا هذه الإمبراطورية ... تنفيذاً لإرادة الله وحده "

الإمبراطور فردريك بربا روسا

هوهنشتاوفن **Hohenstaufen** أو "هوهينستاوفن" **Hehencsteufan** أسرة من الأمـراء في ألمانيا خـلال العـصور الوسـطى،اعتلت العـرش الإمبراطـوري بـين عـامي ١١٣٨ و١٢٥٤م. وقـد استمدت الأسرة اسمها من قلعة عتيقة شُيِّدت في سـتاوفن بجنـوبي ألمانيـا في القـرن الحـادي عـشر الميلادي.ففي عام ١١٣٨م اعتلى أحد أفراد أسرة هوهينستاوفن عرش ألمانيـا،وهو كـونراد الثالـث، كمـا كـان مـن حكـام آل هوهنـشتاوفن أيـضاً فريـدريك الأول باربـاروسـا[١]، وهنـري الـسادس[٢]، و فريديك الثاني[٣].

(١) فريدريك الأول (١١٢١– ١١٩٠م) يدعى باربروسا، وتعني ذو اللحية الحمراء: تولى الحكم بعد عمـه كـونراد الثالـث ملكًا لألمانيا عام ١١٥٢م وأصبح إمبراطور روما المقدس عام ١١٥٥م. وقد أُعجب به الشعب الألماني واحترمـه بوصـفه بطـلاً قوميًا شهيرًا. وفي عام ١١٨٠م هزم منافسه على السلطة في ألمانيا هنري الأسد دوق ساكسونيا وبافاريا، وقد فـرض سـلطانه في ألمانيا وأراضي الحدود السلافية الشرقية.

وكان نجاحه أقل في معركة مريرة ضد ألكسندر الثالث واتحاد لومبارد للمدن الإيطالية الشمالية، وهـزم الاتحـاد فريـدريك في معركة ليجنانو عام ١١٧٦م، وكانت هذه المعركة أول انتـصار كـبير للاتحـاد ضـد الفروسـية الإقطاعيـة. أجـبرت مـدن لومبارد فريدريك على أن يمنحها الحكم الذاتي في عام ١١٨٣م. وفي عام ١١٨٩م بدأ فريدريك الحملة الـصليبية الثالثـة إلى الأرض المقدسة، وكان هدف الحملة استعادة القدس من صلاح الدين.ولكن فريدريك غرق في العام التالي وهو يعبر نهـرًا في أسيا الصغرى.

(٢) هنري السادس (١١٦٥– ١١٩٧م): أحد أعضاء أسرة هوهينستاوفن، خلف والـده فريـدريك باربـاروسـا سـنة ١١٩٠م. وقد شجعه زواجه من كونستانس أميرة صقلية على المطالبة بمُلكها، كما حصل على فدية كبيرة من ريتـشارد قلـب الأسـد ملك إنجلترا الأسير لدى دوق النمسا. ودعم هنري مركزه في إيطاليـا مـن خـلال البابـا العجـوز سلـستين الثالـث، ووضـع الخطط المتعلقة بإبقاء العرش الإمبراطوري في أسرة هوهينستاوفن واتخاذ القدس ذريعة لبدء حرب صليبية جديـدة. غـير أن هذه المشاريع توقفت بموت هنري وهو في سن الثانية والثلاثين.

(٣) فريدريك الثاني (١١٩٤– ١٢٥٠م): ويدعى أعجوبة العالم وكان أحد أذكى حكام العـصور الوسـطى الأوروبيـة. كـان إداريًا ممتازًا وجنديًا قديرًا وعالمًا رائدًا في عصره، ألمّ بلغات عديـدة وشـجع تطـوير الـشعر والنحـت، ومـازال كتابـه عـن الصقور مرجعًا للخبراء. وينتمي فريدريك للعائلة الملكية هوهينستوفن وكان ابن هنري السادس إمبراطور روما المقدس وحفيد فريدريك الأول، تّوج فريدريك الثاني ملكًا لألمانيا، حينما كان عمره عامين وملكًا لإيطاليـا وعمـره أربـع سـنوات، وأصـبح إمبراطور روما المقدس عام ١٢١٥م، ونصّب نفسه ملكًا على القدس عام ١٢٢٩م. حكم فريدريك مملكة صقلية حكمًا جيدًا، وأسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤م وجعل من جامعة ساليرنو أفضل مدرسة طب في أوروبا، وكـان طـوال حياتـه في خـلاف مع الباباوات والمدن الناهضة في ألمانيا وإيطاليا.

أعجب فريدريك الثاني بالثقافة العربية الإسلامية وشجع دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركـزًا هامًـا لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وقد أغضب اهتمامه هذا رجال الدين النصرانيين فاتهموه بالهرطقـة أو الخـروج عـن الدين.

الجدير بالذكر؛ أن الحقبة الهوهنشتاوفنية ارتبطت بالمرحلة الأخيرة من تفت الإقطاع في ألمانيا، وانهيار السيادة الألمانية في إيطاليا. ولو حاولنا أن نستقرىء تاريخ الإمبراطورية الرومانية الآتي من خلال الأحداث،لأدركنا أن الحقبة التاريخية كانت صراعاً بين أباطرة الهوهنشتاوفن والبابوية، أما إذا تخطينا هذه الأحداث إلى خلفياتها البعيدة لبدا لنا الواقع صراعاً بين مفهومين للسيادة الواحدة، أحدهما سياسي والآخر روحي، وكان هذا نتيجة حتمية لمفهوم أكثر عمقاً واتساعاً مما كان يقتتل من اجله هنري الرابع وجريجوري السابع،ذلك أن الطرفين أضحى كل منهما يحمل الإدعاء الكامل بالعالمية.

وإذا كانت المشكلات مع الباباوات بدأت في منتصف القرن الحادي عشر الميلاديّ، عندما حاول كل من هنري الرابع الإمبراطور الروماني، والبابا جريجوري السابع،بسط سلطته على الآخر، فإن الصراع من أجل السلطة ظل قائمًا بين الأباطرة والباباوات حتى عام ١٢٥٠م، كما قوى نفوذ النبلاء الألمان خلال هذا الصراع.

ففي عام ١١٢٥م عندما توفي هنري الخامس، عزم حزب الإصلاح الكنسي في ألمانيا على أن يبعد عن العرش الألماني الوريث الشرعي فردريك الهوهنشتاوفن دوق سوابيا، وابن أخ هنري الخامس، وذلك خشية ان يسير على نفس السياسة العدائية تجاه الكنيسة والبابوية. وقد لقيت هذه الرغبة تشجيعاً من جانب نبلاء ألمانيا الذين كانوا يريدون القضاء على مبدأ وراثة العرش الألماني. وهكذا؛ تآلفت الرغبتان لتزكية الحقوق القديمة للأمراء في اختيار الملك، ولتأكيد نفوذ رجال الاكليروس،وتم اختيار لوثيود دوق سكسونيا ملكاً في ألمانيا، والقضاء على محاولات فردريك لترشيح نفسه للعرش الألماني.

وكان لوثيود ابناً باراً بالكنيسة، وحتى قبل أن يصبح ملكاً لم يكن ليعصى للأساقفة أو رؤسائهم أمراً، فلما اعتلى العرش الألماني سلك نفس السبيل راضياً. وكان لوثيود أول ملك ألماني يطلب من البابوية التصديق على اختياره. غير أن التحالف الذي نشأ بين الاكليروس والنبلاء الألمان عند وفاة لوثيود، أعاد مرة أخرى تأكيد ادعاءاتهم حول حقوقهم في اختيار الملك الألماني، ومن ثَم وقع اختيارهم على كونراد الثالث **Conrad III** دوق سوابيا، وهو أول ملوك أسرة الهوهنشتاوفن على عرش ألمانيا.

لقد تسلم كونراد العرش الألماني وهو مثقل بالاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية، والحقيقة أن كونراد الثالث كان الملك الأول بين ملوك ألمانيا منذ هنري الصياد الذي لم يحمل لقب الإمبراطور الروماني، فلم يذهب كونراد مطلقاً إلى إيطاليا، كما كانت الأخيرة آنذاك أخذت تشق طريقها نحو نسيان السيادة الألمانية.

وفي عام ١١٥٢م أدرك كونراد الثالث قبل وفاته ومعه النبلاء الضرورة الحيوية لاختيار ملك يستطيع أن يقضي على هذه الصراعات الداخلية التي تعبث بألمانيا، وأن يعيد إلى الإمبراطورية ذلك المجد الضائع. فتغاضى كونراد عن ابنه الأكبر واختار فردريك دوق سوابيا، الذي أصبح الملك الجديد سنة ١١٥٢م.

وكان أول شيء أقدم عليه الملك الجديد هو إحلال السلام، والسعى نحو إعادة بناء الملكية الألمانية، كما بذل جهوداً مضنية في سبيل تدعيم وزيادة أراضي التاج. أما فيما يختص بعلاقته بالكنيسة؛ فقد أعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التي أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز التي عُقدت بين البابوية والإمبراطورية سنة ١١٢٢م.

وفي أكتوبر سنة ١١٥٧م كان فردريك في بيزانسون **Besancon** ليتلقى ولاء برجنديا بعد زواجه من بياتريس **Beatrise** وريثة كونتية برجنديا، عندما ظهر مندوبو البابا وعلى رأسهم الكاردينال رولان "رولاند **Roland**" [٤]، والذي يحمل رسالة شديدة اللهجة يحتج فيها البابا هادريان الرابع **Hadrian IIII** على الهجوم الذي قام فرسان فردريك على إحدى الأسقفيات أثناء عودته من روما إلى ألمانيا.

وراح الكاردينال يتلو رويداً رسالة البابا، بينما تولى رينالد **Reinald** – رئيس أساقفة كولوني– صديق فردريك المحبوب مهمة الترجمة، وقد سيطر على المكان جو من التوتر العام ووقعت كلمات الكاردينال من أذن الإمبراطور وقع الصاعقة اتقدت له بالغيظ عيناه، على حين كان الكاردينال يقرأ "**لعله لم يغب عن ذهنك، أيها الابن الكريم كيف أن الكنيسة الرومانية المقدسة.. قد أنعمت عليكم مؤخراً بالتاج الإمبراطوري.. وسوف تكون أكثر سعادة لو أنا أنعمنا عليك بجميل Benefieia أكبر إذا كان ذلك ممكناً**".

---

(٤) البابا اسكندر الثالث **Alexander III** فيما بعد.

ولم يذهب الكاردينال أبعد من ذلك في قراءته، إذا أن رينالد **Reinald** ترجم كلمة **Benefieia** بأنها إقطاع "هبة موقوتة **Beneficium**" وليس جميل **Benefieia**، وأحدث هذا القول رد فعل عنيف في قاعة الاجتماع، إذا قفز على الفور أحد فرسان الملك المقربين، واستل سيفه وتقدم ليغمده في حلق المندوب البابوي غير أن فرديك كان أسرع منه، فألقى بردائه على مندوب البابا، وأعيد رسل البابا إلى روما وسط حراسة مشددة. وسميت هذه الوقعة بحادثة بيزانسون.

لقد كان أكثر شيء مقتاً إلى نفس الإمبراطور تلك الكلمة التي جعلت من الإمبراطورية إقطاعا بابوياً، فرسالة البابا – مع الخطأ في الترجمة– تعني أن الإمبراطورية إقطاع مؤقت،كما أن التاج الذي على رأس الإمبراطور هبة من البابوية. ولذلك جاء البيان الذي أصدره فردريك رداً على رسالة البابا عنيفاً يمتلئ غيظاً، فأعلن أن قول البابا "**محض زيف وإدعاء**"، وأضاف "**لقد تملكنا هذه الإمبراطورية بطريق الانتخاب من جانب الأمراء تنفيذاً لإرادة الله وحده**".

لقد كانت رسالة فردريك تعني أن كل من يقول بأن التاج الإمبراطوري إقطاع من البابا، فهو يتحدى بذلك النظم والقوانين الإلهية، وإذا كانت البابوية مقدسة من السماء، فإن الإمبراطورية مقدسة من السماء أيضاً. والحقيقة أن هذا النداء الذي صدر عن فردريك لقي التأييد بالكامل من قبل الكنيسة الألمانية خاصةً وأنه كان قد سعى بجهده ليحررها من سطوة روما ونفوذها. كما عُرفت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة.

الجدير بالذكر؛ أن أعظم الانتصارات التي حققها فردريك بربا‌روسا في نظر معاصريه هو ما أقدم عليه سنة ١١٨٤م من زواج أبنه الأكبر هنري على الأميرة كونستانس وريثة عرش وليم الثاني ملك جنوب إيطاليا وصقلية وكانت العروس تكبره بعشرين سنة، وكان هذا زواج سياسي، ذلك أن الابن بهذا الميراث إن لم يكن الأب، كان يطمح في أن يضم إلى بقية الإمبراطورية تلك الدولة النورمانية البحرية، ذات الثراء العريض والتنظيم الدقيق. ولما رفض البابا أن يتوج هنري، أعلن فردريك ابنه إمبراطورا شريكاً وخلع عليه لقب القيصر.

ومما لا شك فيه؛ أن هذه الزيجة التي تمت في احتفال مهيب شهدته ميلانو عام ١١٨٦م كانت تشكل خطراً محدقاً للبابوية، فالوحدة بين الإمبراطورية الألمانية ومملكة النورمان الإيطالية كانت تهديداً مباشراً لاستقلال البابوية بصورة لم تحدث من قبل، وذلك في أشد أيامها حرجاً،

فقد شاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلي كرسي القديس بطرس، إذا تعاقب على هذا الكرسي عدد من الباباوات الضعاف.

واقع الأمر؛ إن البابوية عاشت حتى لا يتحقق هذا التحالف بين ألمانيا وصقلية، فمشكلة البابوية أن تسيطر عليها قوة خارجية، فالبابوية تريد إمبراطور صنيعتها، وتريد أن تخلق قوة سياسية كبيرة قادرة على حمايتها، لكن في نفس الوقت أضعف من البابوية، وتلك معادلة صعبة.

ومن ناحية أخرى؛ يدرك الإمبراطور الروماني أنه لا يمكن أن يصبح إمبراطور بدون نفوذ له في روما، أو تكون تحت سيطرته وسلطته، ولكي يكون الإمبراطور الألماني عنيفاً في سيطرته على البابوية عليه أن يضع قدميه واحدة في ألمانيا والأخرى في صقلية.

وفي عام ١١٨٨م أقدم الإمبراطور العجوز على خطوة أخيرة ليضع بها نفسه على رأس الشئون الأوربية، فقد كانت قيادة الحركة الصليبية دائماً تتركز في يد البابوية، إلا أنه في ذلك العام حمل الصليب ليقود الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة [٥]. وقد اختار فردريك الطريق البري الوعر متجهاً نحو الشرق، وفي عام ١١٩٠م لقي حتفه غرقاً في أحد أنهار أسيا الصغرى.

---

(٥) كانت معركة حطين في ٤ يوليو ١١٨٧م/٥٨٣هـ واسترداد المسلمين بعدها لبيت المقدس بمثابة ضربة قاصمة للكيان الصليبي في بلاد الشام الذي بدأ في الانهيار ذلك لأن المدن الصليبية كانت تتهاوى واحدة تلو الأخرى في يد المسلمين. ولهذا حشدت أوربا قواتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وذلك في صورة حملة صليبية جديدة وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثالثة. وقد قاد هذه الحملة ثلاثة من أبرز ملوك وأباطرة أوربا في ذلك الوقت وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ثم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا.

والواقع أن؛ أول من حمل منهم الصليب وتوجه إلي الشرق كان الإمبراطور الألماني علي رأس جيش ضخم،إلا أن هذا الإمبراطور عندما عبر بقواته إلي أسيا الصغرى غرق في أحد الأنهار هناك. فتفرق أغلب أفراد هذه الحملة ولم يصل سوي عدد قليل إلي مدينة عكا الساحلية للمشاركة في حصارها وذلك بجانب قوات الملك الفرنسي الذي سارع بالقدوم للمنطقة بعد الكارثة السابقة وفقد الصليبية الثالثة للدعم الألماني. أما الملك الإنجليزي فقبل أن يصل إلي الشرق عرج في الطريق علي جزيرة قبرص واستولى عليها،وذلك لموقعها الفريد في مواجهة الساحل الشامي والذي يمكن الصليبيين من التزود بالمؤن قبل قدومهم لبلاد الشام.

وهكذا؛ تقابلت القوات الإنجليزية والفرنسية عند أسوار مدينة عكا وذلك بقصد إسقاطها في القبضة الصليبية لأنها جوهرة الساحل الشامي والتي يمكن من خلالها استرداد بقية المدن الصليبية لاسيما بيت المقدس وهي الغرض الأساسي من الحملة. ودار الصراع الحربي بين المسلمين والصليبيين بشأن المدينة، وتخلل هذا بعض الاتصالات للتفاوض من أجل عكا إلا أن هذا لم يمنع حامية المدينة من الاستمرار في مقاومة الصليبيين. وقد استمر حصار عكا كما استمرت المعارك المتصلة بين الجانبين لمدة عامين كاملين ١١٨٩–١١٩١م إلا أن المدينة سقطت في النهاية في أيدي الصليبيين. وبهذا انتهت معركة عكا لتبدأ أحداث معركة جديدة لا تقل ضراوة عن المعارك الحربية وهي المفاوضات الأيوبية– الصليبية والتي استمرت عاما كاملا ١١٩١–١١٩٢م وانتهت بعقد هدنة الرملة.

وخلف هنري السادس **Henry VI** أبيه فرديك على العرش، وخلال العهد القصير لهنري (١١٩٠– ١١٩٧م) يمكن القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد وصلت إلى منتهى ارتقائها في العصور الوسطى. فقد كان هنري دبلوماسياً داهية يعرف كيف يحصل على أكبر الامتيازات بأيسر السهل، وكان الهدف الأساسي الذي يملك عليه كل فكره هو أن يجعل الإمبراطورية أكثر اتساعاً وأشد قوة مما كانت عليه زمن أي من أسلافه، وما من شك في؛أن الوسيلة الرئيسية لبلوغ هذا المأرب هو أن يتمسك بإصرار بميراث زوجته كونستانس في جنوب إيطاليا وصقلية.

وفي يوم عيد الميلاد سنة ١١٩٤ – في الكاتدرائية التي يرقد فيها جثمانه إلى الآن– في بالرمو، توج هنري السادس الملك الألماني والإمبراطور الروماني، ملكاً على صقلية وأبوليا وكالابريا. وفي نفس العام ولد له من زوجته كونستانس ابنه فردريك، الذي عُرف فيما بعد بفردريك الثاني، فأراد هنري أن يحتفظ بالتاج لطفله عن طريق قيام البابا بتتويجه دون مراسم الاختيار الألمانية أو الصقلية. غير أن المعارضة لهذا الأمر ظهرت في ألمانيا يقودها رئيس أساقفة كولوني، الذي كان من حقه نظرياً، إن لم يكن أمراً واقعاً، المشاركة في عملية اختيار الملك الألماني وتتويجه، وقد صعب ذلك أيضاً رفض البابا القيام بعملية تتويج هذا الرضيع إمبراطور، ومن ثَم عصفت هذه الاعتراضات بخطة هنري السادس.

الجدير بالإشارة؛ أن فردريك عندما بلغ عامه الثاني تم اختياره على يد الأمراء الألمان ملكاً على الرومان، وقد رضي هنري السادس بذلك بدلاً من أن يفقد كل شيء، كما أن فردريك بأي حال هو وريثه الشرعي على مملكة النورمان.

وفي بالرمو سبتمبر سنة ١١٩٧م أتى الموت فجأة لهنري السادس وهو في ريعان شبابه، إذا لم تكن سنون عمره قد تجاوزت العام الثاني والثلاثين، وقد علق أحد المؤرخين الألمان على موته قائلاً أنه كان: " **أفجع نازلة حلت بالتاريخ الألماني طيلة العصور الوسطى**".

أما في إيطاليا؛ فإنه عقب وفاة هنري السادس، ارتفعت موجة العداء تجاه الألمان، وكان هذا نتيجة لطبيعة السياسة التي جرت عليها ألمانيا في إيطاليا. على حين عمت الفوضى صقلية بعد سنة ١١٩٧م وعملت كونستانس جاهدة على الاحتفاظ بالمملكة لصغيرها فردريك الثاني، ولما توفاها الموت سنة ١١٩٨ تركت وليدها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت الثالث **Innocent III**

ومجلس وصاية من رجال الكنيسة. ولما كانت البابوية في شغل شاغل بنفسها وسموها عن من سواها، تدس أنفها في الصراع الأهلي الطاحن في ألمانيا حول العرش، فإنها لم تلتفت إلى ذلك الصبي فردريك، وأصدرت وثيقة رسمية سنة ١٢٠١م بأحقية الطفل في العرش وأنها لا تمتلك الوقت الكافي لرعايته.

وهكذا؛ ترك الصبي فردريك وشأنه، شأن أي غلام صقلي يتخبط في شوارع بالرمو وأسواقها العامة، فشب في حارات صقلية وشوارعها، ليعتمد على نفسه وليفتح عينيه على كل ما خلفه المسلمون في الجزيرة من جوانب حضارية راقية، حتى لقد أصبح فردريك على حد تعبير المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان "**يمتلك قدراً عالياً من الفكر والثقافة الواسعة، يعرف ست لغات هي الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية. جمع أصول المعرفة في الفنون وصاحب مدرسة في فن النحت.. شاعراً ودبلوماسياً.. ومهندساً معمارياً**".

لهذا كله لم يكن غريباً أن يحظى فردريك الثاني بلقب "**محير العالم**" أو "**أعجوبة الدنيا**" **Stupor Mundi** الذي أطلقه عليه معاصروه، تعبيراً عن هذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصه.

زد على ذلك؛ أن هذه النشأة كان لها أثر عليه في الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة(٦)، فلم يكن يكافأ له في ذلك الوقت في سعة الأفق إلا الملك الكامل الأيوبي في مصر، فقد كان معاصراً وصديقاً حميماً له، حتى شبههما الأستاذ كانتروفتش بأنهما وجهين لعملة واحدة، معبراً عن ذلك بقوله "**كان الكامل هو الوجه الشرقي للإمبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربي للسلطان**".

أما بالنسبة للعرش؛ فقد خلف هنري السادس أخوه فيليب السوابي "دوق سوابيا"، واختار الأمراء أوتو دوق برنسويك **Brunswick**، وكان هنري السادس قبل موته أخذ البيعة لأبنه، فأصبح على العرش ثلاثة ملوك، الطفل فردريك في صقلية، وفيليب السوابي،وأوتو الرابع دوق برنسويك، فمن هو الملك!

---

(٦) الحملة السادسة (٦٢٦–٦٢٧ هـ، ١٢٢٨ – ١٢٢٩م)، قادها الإمبراطور فريدريك الثاني الذي أغضب البابا بتوقيعه اتفاقًا مع سلطان المسلمين الملك الكامل قضى بسيطرة النصارى على بيت لحم والقدس، وظلت بقبضتهم حتى استعادها المسلمون عام ٦٤٢هـ، ١٢٤٤م.

واشتعلت نار الحرب الأهلية بين فيليب وأوتو المختار من قبل الأمراء عام ١١٩٨م، وبعد ثلاث سنوات كاملة من الحرب أصدرت البابوية عام ١٢٠١م وثيقة خطيرة من قِبل البابا أنوسنت الثالث، جاء فيها " **أنا رجل صالح لأني خليفة المسيح ولا يمكن أن يكون خليفة المسيح رجلاً آثماً، وسوف أحكم بالعدل في هذه القضية على مبدأين هما الشرعية والصلاحية**". ومعنى هذا مَن له شرعية في الحكم ومَن يصلح للحكم، وكلاهما متناقضان ولا يتفقان، فكانت هذه الوثيقة في جوهرها تحريضاً على إثارة الفتنة والحرب الأهلية في ألمانيا، وهذا ما تريده البابوية وتسعى إليه لتظل سيادتها على الإمبراطورية.

وقد أوضح البابا في وثيقته الحكم على النحو التالي:

الطفل فردريك الثاني؛ من حيث الشرعية هو أحق الثلاثة بالعرش، لأنه ابن الإمبراطور وجده الإمبراطور، ولأن أباه أخذ له البيعة من الأمراء دون إكراه، وهم غالبية الأمراء وأكبرهم، ولكنه لا يصلح لأنه مازال طفلاً والبابوية غير متفرغة لرعاية هؤلاء الأطفال.

فيليب السوابي؛ يأتي في المرتبة الثانية من حيث الشرعية بعد ابن أخيه، لأنه أقرب الناس للملك الذي مات ويصبح بحق الوراثة الملك الشرعي، كما أنه من الأسرة الحاكمة الجالسة على العرش "الهوهنشتاوفن"، ولكنه لا يصلح، لأنه قديماً أغضب البابا فحرمه ثم عفى عنه، وبما أنه سبق حرمانه قبل ذلك فهو لا يصلح.

أوتو الرابع؛ ليس له الحق مطلقاً في العرش لأنه ليس من الأسرة الحاكمة، ولأن الأمراء الذين اختاروا هم الأقلية عدداً وشأناً "من الدوقيات الصغيرة"، ولكنه أصلح الثلاثة.

كان هذا هو الفكر السياسي البابوي في العصور الوسطى، فالبابوية تريد بجانبها إمبراطورية قوية قادرة على حمايتها، ولكنها أضعف منها، والإمبراطور في نفس الوقت يريد روما داخلة في سلطانه، ويريد السيطرة على البابوية، لذا لا يتفق الاثنان.

وهكذا؛ تولى أوتو العرش، ولكن لقد اختاره البابا، فما الذي سوف يقدمه هو للبابا، لقد طلب منه الأخير ثلاثة مطالب:

- **التخلي عن صقلية وفسخ عقد الشركة بين ألمانيا وصقلية، لكي لا تصبح للإمبراطورية قدم في ألمانيا والأخرى في صقلية وروما في المنتصف.**
- **حمل الصليب والتوجه إلى الشرق في حملة صليبية جديدة، بعد فشل الحملة الثالثة، وقيام الحملة الرابعة بإسقاط القسطنطينية.**
- **يُمنح رجال الدين والاكليروس الكنسي امتيازات هائلة تؤهلهم للخروج عن سلطان الملك "استقلال الكنيسة عن الدولة".**

وفي الحقيقة؛ وافق أوتو على مطالب البابا، واشتعلت نار الحرب بينه وبين فيليب السوابي من عام ١٢٠١ حتى ١٢٠٥م، ولم يقم أوتو بشيء مما وعد به البابا، فتخلى الأخير عنه ووقف بجانب فيليب السوابي، ودخل في مفاوضات معه حول الاعتراف به وتتويجه إمبراطوراً، كما تغاضى عن قرار الحرمان، ولا عجب في الأمر،فالبابا هو الذي يمنح وهو الذي يمنح، وهو صاحب نظرية الشمس والقمر، ونائب المسيح على الأرض، فهو في مرتبة بطرس الآن وليس خلفاً له.

أما فيليب السوابي؛ فقد وعده بتنفيذ كل شيء، إلا أن الأحداث لم تمهله فقد أُغتيل عام ١٢٠٨م نتيجة عداء شخصي، وبذلك أصبح أوتو ملكاً منفرداً، استبد بالسلطة وراح يعاند البابوية. فتذكرت البابوية في عام ١٢١٢م الطفل فردريك الثاني في صقلية، فجاءت به وأعلنته ملكاً على ألمانيا، مما يعني تجدد الحرب الأهلية بين أوتو وفردريك الثاني. والتقى الاثنان في معركة حدثت عام ١٢١٤م كان النصر فيها حليف فردريك، فأصبح إمبراطور بشرط تنفيذ الشروط الثلاثة للبابا أنوسنت، والتي وافق عليها دون تردد.

غادر فردريك ألمانيا عام ١٢٢٠م إلى روما ليتلقى التاج، فقد كانت نظرته إلى ألمانيا لم تكن تتعدى كونها إحدى أقاليم الإمبراطورية، وترتبط بالقلب في جنوب إيطاليا وصقلية عن طريق وسط إيطاليا وشمالها. وقد بدا ذلك واضحاً في أنه لم يعد إلى ألمانيا منذ غادرها سنة ١٢٢٠م إلى روما وحتى وفاته إلا مرة واحدة.

ومن الملاحظ؛ أن البابوية منذ تتويج فردريك وهي تدعوه للقيام بحملة على الشرق، ولكنه لم يقم بشيء فهذا العم توج إمبراطوراً رومانياً، وفي عام ١٢٢٥م رأت البابوية – ممثلة في البابا هونوريوس الثالث– أن تزوجه من وريثة مملكة بيت المقدس، وكان فردريك مزواجاً، وكان هذا الزواج الثاني له، ولم يجد ضرراً من هذا الزواج،لأن البابوية هي التي ستتكفل بتزويجه، كما أنه سيحصل على مملكة بيت المقدس.

وعندما طلبوا منه الذهاب للعروس، فطلب أن تأتي هي، وتزوجها في قبرص، ثم طلبوا منه العودة بها لعكا، فقد كانت بيت المقدس في ذلك الوقت هي صور وعكا، ويطلق عليها تجاوزاً اسم بيت المقدس الذي كان في قبضة المسلمين، فذهب فردريك لألمانيا ولم يذهب لعكا، ومكث هناك عام واحد بعد أن تعهد للبابا بالخروج بهذه الحملة سنة ١٢٢٧م ، فإذا لم يفعل استحق اللعنة والحرم الكنسي.

وأبحر فردريك بالفعل في العام الذي حدده، ولكن المرض داهمه، وبناءاً على نصيحة أطبائه رجع من حيث أتي. وقد جرت الأحداث التي تلت ذلك بصورة ساخرة، كانت كافية لأن تحيل الأمر إلى مأساة درامية أو ملهاة كوميدية، فسرعان ما تعرض الإمبراطور لقرار الحرمان الكنسي الذي أصدره ضده البابا جريجوري التاسع، والذي رأى في عودة فردريك خداعاً متعمداً من جانبه، غير أن الإمبراطور لم يلق بالاً لهذا القرار ولم يجعل منه عقبة تقف في طريق حملته الصليبية.

فبعد سبع سنوات من المماطلة، والتعلل بالمرض، وعدم الاستعداد، وحالة البحر، قرر فردريك الخروج بعد أن شعر بمقدرته على الرحيل، أو بالأحرى بعد صدور قرار الحرمان، إلا أن ذلك وضع البابوية في موقف غاية في الحرج، ومن الصعوبة بمكان، فلا يجوز أن يخرج في حملة وهو يحمل لعنة الحرمان، فكيف سيحمل الصليب! كان لا بد أن تعفو عنه البابوية، ولكن ليس لها ضامن إذا فعلت ذلك أن يذهب إلى الشرق، فلم تعفو عنه.

وهكذا؛ لم يجد فردريك بداً من الخروج حاملاً الصليب بيمينه واللعنة على كتيفيه! والحق يقال أنه لا يمكن اعتبار الحملة الصليبية التي قام بها فردريك حملة عسكرية بالمعنى المفهوم، فقد خرج في صحبة (٥٠٠) جندي وكأنه خرج للتنزه، كما أنه حصل على مملكة بيت المقدس عن طريق المفاوضات الهادئة مع سلطان مصر الملك الكامل الأيوبي.

الواقع أن؛ الملك الكامل أعطى له الأماكن المقدسة في القدس وليس القدس نفسها، وسمي هذا تدويل مدينة القدس، وقد كانت فكرة الكامل أن مصر أولاً والباقي بعد ذلك، لأن مصر هي القلب. ويتضح ذلك من وثيقة للملك الصالح أيوب إلى أبنه تورانشاه يقول له فيها: "**وهذا العدو المخذول، إن عجزت عنه، وخرجوا من دمياط وقصدوك، ولم يكن لك بهم طاقة وتأخرت عنك النجدة، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل أعطيهم ولا تتوقف، على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة، أعلم يا وليدي أن الديار المصرية هي كرسي المملكة، وبها تستطيل على جميع الملوك. فإن كانت بيدك، كان بيدك جميع الشرق**".

وعلى الرغم من؛ النجاح الساحق الذي حققته هذه المفاوضات فإن ذلك لم يرضي البابا، فقد خرج فردريك وهو يحمل الحرمان، بالإضافة إلى أنه تفاوض مع الملك الكامل –الذي يعد في نظر البابا كافر– بدلاً من أن يحاربه ويقضي عليه.

وتحدد هذه الأحداث البداية الطبيعية للحرب القادمة والدائمة بين الباباوات وفردريك، والتي شغلت ما بقى له من عمره، حتى عاجله الموت نتيجة إصابته بالدوسنتاريا في جنوب إيطاليا عام ١٢٥٠م. وبعد وفاة فردريك بثمانية عشر عاماً تم إعدام آخر الأباطرة الرومان من أسرة الهوفنشتاوفن، الإمبراطور كونرادينو، الذي قطعت رأسه في مدينة نابولي بموافقة البابا كلمنت الرابع عام ١٢٦٨م.

وهكذا؛ كُتب لقصة الصراع الطويل بين الإمبراطورية والبابوية أن تنتهي لصالح الباباوات. كما يمكن اعتبار سنة ١٢٦٨م نهاية للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفي نفس الوقت، نهاية لحكم أسرة الهوهنشتاوفن.

وبذلك؛ خلت الساحة للبابوية لتعربد في أوربا حتى القرن التاسع عشر، فلم يكن هناك ملوك وأباطرة أقوياء يسيطرون على البابوية، التي أصبحت تتحكم حتى في المسائل الشخصية، فتجبر الملوك على طلاق زوجاتهم والزواج من أخريات، وأصبح البابا هو السلطان الزمني والروحي، وأصبحت صكوك الغفران تباع بالنقود في أوربا.

وهذا ما سمي بالعصور المظلمة من ١٢٦٨م وحتى عام ١٥٠٠م، لأن الكنيسة أصبحت ذات سلطة مطلقة، ولم يُسمح لأحد أن يقول رأي يخالف رأي الكنيسة، ولا يعارض الكنيسة أحد وإلا سيكون الإعدام نهايته.

خريطة (٤)

الإمبراطورية الرومانية المقدسة[٧]

الإمبراطورية الرومانية المقدسة امتدت عام ١٢٥٠م من بحر الشمال حتى البحر المتوسط. وكانت مملكة الصقليتين، وهي ممتلكات خاصة للإمبراطور، منفصلة جغرافيًّا عن الإمبراطورية بوساطة الولايات

(٧) خريطة (٤) نقلاً عن الموسوعة العربية العالمية: Holy Roman Empire

الملاحق

ملوك وأباطرة ألمانيا Kings and Emperors of Germany

Carolingian Dynasty

843-876	Ludwig der Deutsche (the German)		
876-882	Ludwig der Jüngere * (the Younger)		
876-880	Karlmann *		
876-887	Karl der Dicke * (the Fat)	= 881	
887-899	Arnulf von Kärnten	= 896	
900-911	Ludwig das Kind (the Child)		

Konradinian Dynasty

911-918	Konrad I		

Saxon Dynasty

(Italy in personal union with Germany from 951)

919-936	Heinrich I der Vogler (the Fowler)		
936-973	Otto der Grosse (the Great)	= 962	
973-983	Otto II	= 967	
983-1002	Otto III	= 996	
1002-1024	Heinrich II	= 1014	

Salian Dynasty

(Burgundy in personal union with Germany from 1033)

1024-1039	Konrad II	= 1027	
1039-1056	Heinrich III	= 1046	
1056-1106	Heinrich IV	= 1084	
1077-1080	Rudolf von Rheinfelden		
1081-1088	Hermann		
1087-1098	Konrad		
1106-1125	Heinrich V	= 1111	

House of Supplinburg

1125-1137	Lothar III	= 1133	

House of Hohenstaufen

1138-1152	Konrad III (anti-king 1127-1135)		
1147-1150	Heinrich (co-regent)		
1152-1190	Friedrich Barbarossa	= 1155	
1190-1197	Heinrich VI	= 1191	
1198-1208	Philipp von Schwaben		

House of Welf

1198-1218	Otto IV (anti-king 1198-1218)	= 1209	

House of Hohenstaufen

	Friedrich II	= 1220	
1212-1250	Heinrich (co-regent)		
1220-1235	Konrad IV (co-regent to		
1235-1254	1250)		

The Great Interregnum

1246-1247	Heinrich Raspe von Thüringen	
1247-1256	Wilhelm von Holland	
1257-1274	Alfons von Kastilien	
1257-1272	Richard von Cornwall	

Different Dynasties

H = Habsburg, L = Luxemburg, W = Wittelsbach

H	1273-1291 Rudolf I		
	1292-1298 Adolf von Nassau		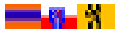
H	1298-1308 Albrecht I		
L	1308-1313 Heinrich VII	= 1312	
W	1314-1347 Ludwig IV der Bayer	= 1328	
H	1314-1330 Friedrich der Schöne (the Fair)		
L	1346-1378 Karl IV	= 1355	
	1349 Günther von Schwarzburg		
L	1378-1400 Wenzel		
W	1400-1410 Ruprecht von der Pfalz		
L	1410-1411 Jobst von Mähren		
L	1410-1437 Sigismund	= 1433	

House of Habsburg

(king of Germany automatically emperor from 1508)

1438-1439	Albrecht II	
1440-1493	Friedrich III	= 1452
1493-1519	Maximilian I	= 1508
1519-1556	Karl V	
1556-1564	Ferdinand I	
1564-1576	Maximilian II	
1576-1612	Rudolf II	
1612-1619	Matthias	
1619-1637	Ferdinand II	
1637-1657	Ferdinand III	
1658-1705	Leopold I	
1705-1711	Joseph I	
1711-1740	Karl VI	
1740-1742	Interregnum	

House of Wittelsbach

1742-1745	Karl VII Albrecht	

House of Habsburg-Lorraine

1745-1765	Franz I Stephan 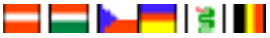
1765-1790	Joseph II 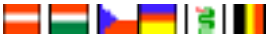
1790-1792	Leopold II 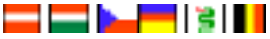
1792-1806	Franz II 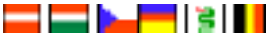

1806-1813	Confederation of the Rhine
1815-1866	German Confederation
1867-1871	North German Confederation

House of Hohenzollern

1871-1888	Wilhelm I	
1888	Friedrich III	
1888-1918	Wilhelm II	
1918-1933		
1933-1945	Weimar Republic	
1945-1949	Third Reich	
1949-1990	Allied Occupation	
1990-	West and East Germany	
	Federal Republic of Germany	

* = Germany was 876 divided between the brothers Karlmann (Bavaria), Karl (Swabia) and Ludwig (Saxony, Thüringia and Franconia). When Karlmann died 880 his land was inherited by Ludwig who's lands then was inherited by Karl 882.

= Holland	= Saxony	= Brandenburg	= Prussia
= "Belgium"	= Brunswick	= Meissen	= Bohemia
= Luxemburg	= Nassau	= Thuringia	= Moravia
= France	= The Palatinate	= Franconia	= Austria
= Spain	= Swabia	= Bavaria	= Hungary
= Castile	= Italy	= Carinthia	= Transylvania
= Sicily	= Milan	= Jerusalem	

ثبت بملوك وأباطرة ألمانيا، متاح على شبكة الإنترنت بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٦، على الرابط:

http://www.tacitus.nu/historical-atlas/regents/germany/germany.htm

الملك ألفريد العظيم[١]

(Alfred The Great)

(١) أحمد صبري غباشي، مقال بعنوان "ألفريد العظيم"، منشور بمجلة مدارات، مدارات تاريخية، بتاريخ ١ نوفمبر ٢٠٠٧، متاح على الرابط : <http://madarat.info/archives/297#comments>

ملكٌ .. تحبه سجلات التاريخ في الأدب الإنجليزي !

حديثي عن الملك ألفريد هو إعادة تنقيب عن ثروة تراثية، وعلامة بارزة يعرفها كل المهتمين بدراسة الأدب الإنجليزي .. فللملك ألفريد مكانة لا يمكن إغفالها في تاريخ الأدب الإنجليزي، بل وفي التاريخ الإنجليزي كله.

إنه الملك الإنجليزي الوحيد الذي سجل التاريخ اسمه مصحوباً بنعت : العظيم (**Alfred the Great**) كان ملكاً للمملكة (الأنجلو ساكسونية) الجنوبية لفترة دامت من ٨٧١ إلى ٨٩٩ م .. أي أن فترة حكمه قد تعدّت ربع قرن ... ولنقدم في البدء نبذة مختصرة عن عصر (الأنجلو ساكسون) كي نكون على نور لّما نستفيض في الحديث أكثر:

ففي القرن السادس صار العلماء الجدد مسيحيين لأنهم قد تأثروا بالأيرلنديين الذين أتوا ليغزوهم، وكان معظمهم من المسيحيين. وينتمي كل الأدب في هذه الحقبة إلى إنجلترا المسيحية؛ فقد تمت كتابته بواسطة الرهبان في الأديرة .. وهذا يشير بوضوح إلى أنه قد كان شفهياً ينتقل عن طريق الحكي .. وكان أكثر الأدباء غير معروفين.

نعود لـ(الملك ألفريد العظيم) .. فنقول أنه قد عانى كثيراً في قتال الدانماركيين لصد غزوهم ضد إنجلترا، ولكن نجح هؤلاء بالفعل في هزيمة المقاتلين الإنجليز واحتلوا إنجلترا .. وفي عام ٨٧١ قُتل أخيه إثر حروبه مع الأعداء ، وفي نفس العام أيضاً مات الملك إثيلريد وخَلَفه ألفريد في الحكم .. بلا مشاكل.

تولى الحكم ليواجه طابوراً طويلاً من المشاكل غير الهينة .. وكان عليه أن يعالجها كأي ملك شريف .. ولقد أثبت فعلاً أنه كذلك .. فقد نظم الجيوش ليسود السلامُ مملكته، وأثبت شجاعة وحنكة عسكرية في معاركه حتى تخلص من الدانماركيين أخيراً في عام ٨٩٧ م .. ولم يخِرّ مجهداً بعد ذلك مؤمناً أنه قد قدّم بحربه كل ما يمكن تقديمه، ومنتظراً من فناني هذه الحقبة أن يصنعوا له أوبريتات للتمجيد .. ولكن ظل نشاطه بعد الحرب مستمراً فقد حاول الإصلاح في البلاد بعد آثار حربه مع العدو ؛ فاهتم بدفاعات المدينة وحصّنها ، وعنى بإقامة العدالة ، ولُقِّب بـ (حامي الفقراء).

وبالنسبة لعلاقاته الخارجية فقد كانت كثيرة .. فقد كان على اتصال بأمراء الكلت (Celt – سكان بريطانيا القدامى) ، وأمراء جنوب ويلز ، وخليفة بغداد ، وكان على علاقة وطيدة بـ بطريرك القدس : إلياس الثالث، وكذلك كانت بعثاته التي تحمل الزكاة إلى البابا في روما كثيرة جداً .. كما أنه كان يرسل الزكاة إلى أيرلندا بالإضافة إلى الأديرة الأوروبية الأخرى.

على الرغم من؛ أن الهجمات الدانماركية قد شغلت جزءً كبيراً من تاريخ الكنيسة في عهد ألفريد، وكذلك كانت الأديرة بمثابة نقاط خاصة للهجوم .. إلا أن الملك ألفريد من بين هذا كله كان مشغولاً بقضية التعليم الذي لم يكن راضياً عن مستواه في هذا الوقت .. ولهذا فقد هيّأ كنيستين أو ثلاثة، وأرسل في طلب رهبان أجانب من إنجلترا لأنه لم يكن هناك أي إحياء للرهبانية في هذا الوقت بسبب الخراب وتدهور التعليم في ظل الدانماركيين .. هذا بالإضافة إلى أن اللغة اللاتينية قد انقرضت تطبيقاً وممارسةً حتى بين رجال الدين .. وترجمات الملك ألفريد إلى اللغة الإنجليزية القديمة – تحت رعاية (البابا جريجوري) – شاهدةٌ على ذلك .. لهذا استوردَ علماءَ مثل (جريمبالد) ، و(جون الساكسوني) من أوروبا ، و(آسر) من جنوب ويلز .. ولهذا أيضاً ، وقبل أي شيء ، سخّر نفسه للتعلّم .. وقام بعمل سلسلة من الترجمات لتعليم رجال دينه وعشيرته، وأغلب هذه الترجمات موجودة حتى لحظة كتابة هذه السطور، ومن أقدم هذه الأعمال التي تمت ترجمتها : (حوارات جريجوري – Dialogues of Gregory) وهو كتاب قد حظى بشعبية وشهرة واسعة في العصور الوسطى.

لم يكن الملك ألفريد فناناً ؛ لكنه كان يكتب النثر بشكلٍ رائع وتجلى هذا في ترجماته .. نستطيع – إجمالاً لما سبق – أن نقول أن الملك ألفريد هو من أسس الثقافة الإنجليزية.

أما عن كتابه الثاني (اهتمام جريجوري الرعوي – Gregory's Pastoral Care) ، أو – على الأخص – المقدمة التي افتتح بها هذا الكتاب ؛ فيعتبرها الدارسون واحدة من أمتع الوثائق التي تمت كتابتها في التاريخ الإنجليزي .

العملان التاليان أخذا الطابع التاريخي ، التاريخ العالمي لـ "أوروزياس " Universal History of Orosius و تاريخ "بيد" الكَنَسي History Bede's Ecclesiastical.

ففي العمل الأول يحاول الملك ألفريد – باستخدام الحذف والتعديل – إعادة تشكيل أصله تقريباً كي ينتج هذا العمل الجديد، وفي العمل الثاني التزم الكاتب في نَصّه أسلوب المباشرة ولم تتم أي إضافات، ومع ذلك فأغلب الوثائق وبعض المسائل الأخرى غير المهمة محذوفة. في الأعوام الأخيرة زادت نسبة شكوك البعض الذين شككوا في ترجمة ألفريد لـ(تاريخ "بيد" الكَنَسي) .. لكن هؤلاء لا يأخذ برأيهم الدارسون حتى ولو حاولوا إثبات ما يقولون .

والآن؛ نأتي لعمل الملك ألفريد الأكثر إمتاعاً : (تعزية فلسفة "بوذياس" Consolation of Philosophy of Boethius) . الكتاب الأكثر شعبية في العصور الوسطى .. وقد جاء فيه هذه العبارة له: " رغبتي كانت أن أحيا بجدارة طول حياتي، وأرغب بعد انتهاء حياتي أن أترك لهم ما يجب أن يتبعوه . ذاكرتي في الأعمال الجيدة " جاء هذا الكتاب إلينا في مخطوطتين .. الأولى نثراً، والثانية مزيج من النثر و مجانسة الشعر.

ثمة عمل آخر للملك ألفريد يدعى: كتاب الموت (كتاب القوانين) .. سوّى فيه القوانين الطويلة والمؤسسة لكلٍ من هذه الممالك المسيحية: كنت ، و ميرسيا ، و ويسيكس .. لاحظ سير (ونستون تشرشل) أن (الملك ألفريد) قد رَمَزَ في هذا الكتاب لخليط من شريعة (موسى) عليه السلام ، والمبادئ المسيحية لقانونِ (Celto Brythonic) ، وعادات ألمانية قديمة ..وصرّح (تشرشل) كذلك بأن هذا الرمز قد ضُخِّم من قبل خلفاء (الملك ألفريد) ليصبح أساساً للقانون العرفي الذي أُدير بواسطة المقاطعة والمحاكم المائة، وهذا قاد إلى دستور الحريات .

آخر أعمال ألفريد حمل اسم Blostman .. أو مقتطفات أدبية .. الكلمات الأخيرة من هذا العمل قد تم اقتباسها لتشكل مرثية لنبلاء الملوك الإنجليز. " يبدو لي رجلاً أحمق جداً وتعس حقاً مَن لا يزداد وعيه وإدراكه أثناء وجوده في هذا العالم، ويشتاق لأن يبلغ حياةً لا نهائية حيث يتضح كل شيء." بجانب أعمال (الملك ألفريد) ، فقد نُسبت إليه الترانيم المقدسة الخمسون الأولى، وهذا محتمل جداً وإن كان إثباته لم يتم بعد. وبالإضافة إلى ذلك أيضاً فقد ظهر (الملك ألفريد) في (البومة والعندليب The Owl and the Nightingale)

كشخصية من الشخصيات .. حيث أن حكمته ومهارته بالأمثال تشهد على ذلك. وأيضاً (أمثال ألفريد The Proverbs of Alfred) التي نجدها في مخطوطة تنتمي للقرن الثالث عشر.

العام الذي مات فيه (الملك ألفريد) ليس مؤكداً،لكن من المرجح أنه قد توفي في ٢٦ أكتوبر من عام ٨٩٩ م .. وتم دفنه بشكل مؤقت في الكاتدرائية القديمة في (ونشستر)، ثم انتقل إلى الكاتدرائية الجديدة التي تم بناءها خصيصاً لاستلام جثمانه .. وفي عام ١١١٠م عندما انتقلت الكاتدرائية الجديدة إلى (هايد) شمال المدينة؛ انتقل الرهبان مع جثمان الملك سوية إلى دير (هايد) .. وعلى ما يبدو أن قبره قد تم تنقيبه عند بناية سجن جديد في عام ١٧٨٨م وتبعثرت العظام. لكن في عام ١٨٦٠م تم العثور على عظامه في موقع مماثل وتم دفنه مجدداً في فناء كنيسة (هايد). ثمة تنقيب شامل أجري عام ١٩٩٩م كشف ما تبقى من بقاياه الجسمانية.

مما ورد عنه في الأدب والدراما ...

تمثيلية -Thomas Augustine Arne's Masque of Alfred
ملحمة شعرية -G. K. Chesterton's
رواية -The Namesake and The Marsh King
رواية -Alfred The Days of King
رواية تاريخية ١٩٩١ – The Edge of Light -
the Sun- - 2004 The Last Light of
رواية تاريخية - Alfred Duggan-

وتكريماً له، وتخليداً لذكراه .. سُمّيت جامعة (ونشستر) باسم : جامعة الملكِ ألفريد .. وذلك بين ١٨٤٠ و٢٠٠٤.. بالإضافة إلى كليَّةِ ألفريد الرسمية الواقعة في نيويورك، كلاهما سُمّيَ على اسم الملك. وكذلك أقامت جامعة ليفربول (مقر الملك ألفريد للأدب الإنجليزي)، كما نُسبت جامعة أكسفورد أيضاً – خطئاً – إليه .. هذا بالإضافة إلى جالية الملك ألفريد وكلية الألعاب الرياضية في (وانتاج) مسقط رأسه.

المصادر والمراجع[1]

(١) قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تم الاعتماد عليها في مباحث الكتاب، والهوامش، والمقدمة، والخاتمة، بالإضافة إلى مجموعة من المصادر والمراجع التي تتعلق بالموضوع محل الدراسة لتكون عوناً للقارئ المتخصص.

أولاً: المقالات العربية الإلكترونية

أحمد صبري غباشي ، مقال بعنوان "الملك ألفريد العظيم"، منشور بمجلة مدارات،مدارات تاريخية، بتاريخ ١ نوفمبر ٢٠٠٧، متاح على الرابط:
http://madarat.info/archives/297#comments

أشرف صالح محمد سيد ، مقال بعنوان "المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع من القرن ٩ م إلى القرن ١٤ م"، منشور بجريدة ألف "جريدة إلكترونية سورية مستقلة"، عدد شباط / ١٦فبراير ٢٠٠٨،متاح على الرابط: (http://www.aleftoday.net/modules.php?name=News&file=article&sid=2425)

محمد الحرشي ، مقال بعنوان "قلعة ماركس: تحفة معمارية على الطراز الرومانسي"، سافر معنا، متاح بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٩ على الرابط:
(http://www.dw-world.de/dw/article/0,2144,2339573,00.html)

منصور الجمري ، مقال بعنوان "مقدمات في الفكر السياسي الأوربي"، منشور بديوان العرب " مجلة أدبية فكرية ثقافية اجتماعية"، بتاريخ ١٩يونيو ٢٠٠٦ ، متاح على الرابط:
(http://diwanalarab.com/spip.php?article4823&var_recherche)

ثانياً: المصادر العربية

النويري: ،(شهاب الدين أحمد ت ٧٣٣ هـ/١٣٣٢م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب / تحقيق محمد محمد أمين وحلمي محمد أحمد ، دار الكتب المصرية، ب.ط ، القاهرة ١٩٩٢.

ثالثاً: المراجع العربية المطبوعة والإلكترونية

إبراهيم العدوي ، المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩١٦.

أحمد حردان ، محاضرات بعنوان "أوربا وحضارتها في العصور الوسطى"، منشورة بمدونة الأستاذ/أحمد حردان، بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٢٢، سوريا، متاح على موقع المدونة:
http://ahmad-hardan.maktoobblog.com

أشرف صالح محمد سيد ، التاريخ الدبلوماسي للحملة الصليبية الثالثة، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، سلسلة المؤرخ الصغير (٢)، الطبعة الإلكترونية الأولى، بيروت ٢٠٠٧.- www.arabicebook.com.

السيد الباز العريني ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٨.

رأفت عبد الحميد ، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولي، القاهرة ١٩٩٨.

رأفت عبد الحميد ،تاريخ وحضارة أوربا في العصور الوسطى، كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٩٦.

رأفت عبد الحميد ، محاضرات بعنوان "تاريخ أوربا في العصور الوسطى"، ألقيت في كلية الآداب (قسم التاريخ)– جامعة عين شمس، القاهرة خلال الفترة (فبراير– ابريل) ٢٠٠٠.

رأفت عبد الحميد ، "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب"،بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط،المجلد الثاني،القاهرة ١٩٨٣.

رأفت عبد الحميد ،"السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥.

رأفت عبد الحميد ،"المشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية"، بحث منشور في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد (٣٠)، القاهرة ب.ت.

رأفت عبد الحميد ،الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٠١.

جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها،الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٧.

جوزيف نسيم يوسف ، دراسات في تاريخ العصور الوسطى الأوربية ،الإسكندرية ١٩٨٣ .

جوزيف نسيم يوسف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى،ترجمة لبحثين للأستاذين: م.هارثمان،ج. باراكلاف، القاهرة ١٩٧٠.

سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو ،القاهرة . الجزء الأول:التاريخ السياسي ١٩٧٥، الجزء الثاني :النهضات والحضارة والنظم ١٩٧٦.

عبد القادر أحمد اليوسف ، العصور الوسطى الأوربية، بيروت ١٩٦٠.

محمد رفعت ومحمد أحمد حسونة ، معالم تاريخ العصور الوسطى، الطبعة التاسعة، ب.م ١٩٣٠.

محمد محمد مرسي الشيخ ، حضارة أوربا في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٦.

محمد محمد مرسي الشيخ ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، الإسكندرية ٢٠٠٠.

محمود سعيد عمران ، حضارة أوربا في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٦.

محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٦.

نظـــير حـــسان ســـعداوي ، تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ، القاهرة ١٩٦٨.

نـــــور الـــــدين حـــــاطوم ، تاريخ العصر الوسيط في أوربا، بيروت ١٩٦٧.

رابعاً: المراجع المترجمة

ديفـــــــز(هـــــــ.و) ،أوربا في العصور الوسطى/ ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية ١٩٥٨.

ديفـــــــز(هـــــــ.و) ،شارلمان / ترجمة السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩.

فيـــــــشر(هـــــــ.أ.ل) ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى/ ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ،إبراهيم أحمد العدوي، القاهرة ١٩٥٠،١٩٥٧.– ٢ جزء.

كرمـــــب و جـــــاكوب ، تراث العصور الوسطى / ترجمة، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعة المصرية ،مراجعة محمد بدران ،محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥.– ٢ جزء.

كوبلانـــــــــــد (ج.و) وفينـــــــــوجرادوف(ب) ، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا/ ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٨٥.

كولتـــــــــــون (ج.ج) ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة/ ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف، الطبعة الثالثة، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨١.

مـــــوريس بيـــــشوب ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى/ ترجمة علي السيد علي،الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥.

مـــــوريس كـــــين ، حضارة أوربا العصور الوسطى/ ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٤.

نورمـــــان ف. كـــــانتور ،التاريخ الوسيط: قصة حضارة البداية والنهاية/ ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، الجزء الأول، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٩٧.

هـــ. ســـانت ل.ب.مـــوس ، ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥–٨١٤ م)/ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،مراجعة السيد الباز العريني، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦٧.

خامساً: المصادر الأجنبية

Adrian IV (Pope 1154-1159)	: -Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157. -Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.
Albert, German King	: -Frederick II, Emperor: Promise to Innocent III, 1213. - Gergory VII, Pope: Dictatus Papae.
Gregory II, Pope,	Letter to Leo III
Gregory VII (Pope 1073-1085)	: Letter of Gregory VII to Henry IV, 1075.
Gregory IX, Pope,	Excommunication of Frederick II 1239.
Gregory IX and Frederick II, Emperor;	Papal Charges and Imperial defence 1238.
Henry III, Emperor,	The emperor deposes and Creates popes 1048.
Henry IV, Emperor	: Promise of King to offer obedience to the Pope.
Henry VII, German King	: Declaration of the election of Henry VII 1308.
Henry, Emperor	, The deposition of Gregory VII 1076.
Innocent II, Pope	: Innocent III grants the land of countess Matilda to Lothar II, 1133.
Innocent III, Pope	: Letter to the Archbishop of Ravenna 1198. - The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.
Innocent IV (Pope 1243-1245)	: Sentence of deposition of Frederick II Promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.
Leo III, Pope	: The oath of Leo III before Karl Great.
Leo VIII, Pope	:Leo VIII grants the emperor the right to choose the pope and invest all bishops 963.
Letter from the church of Rome	: To the emperor at Constantinople, asking him to confirm the election of their bishop. : To the Exarch at Ravenna, asking him to confirm the election of their bishop.
Philip of Suabia, German King	: Concessions to Innocent III, 1203.

سادساً: المراجع الأجنبية

Barraclough (G.)	,Mediaeval Germany (911-1250); essays by German Historians, Translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
Barraclough (G.)	,The origins of Modern Germany, Oxford 1947.
Barllow (F.)	,The feudal Kingdom of England (1042-1216), London 1974.
Bettenson (H.)	Documents of the Christian Church, London 1956.
Brackman, (A.)	,The Beginning of the national State in Medieval Germany and the Norman Monarchies, (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 281-299), Oxford 1948.
Brand (CH.)	,Byzantium Confronts the West, Harvard University press, 1968.
Brook (CH.)	, Europe in Central Middle Ages (962-1154), London 1966.
Brook (Z.N.)	, A history of Europe from 911 to 1198 , London 1966.
Bryce (J)	,The Holy Roman Empire, London 1950.
Cantor (N.)	,Medieval history: The life and death of a civilization, New York 1966.
Care (R.), & Coulson (H.),	,A source Book for Medieval Economic History, New York 1965.
Cambridge, Medieval History	,8 Vols. Planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.
Davis (R.H.G.)	,A history of Medieval Europe, From Constantine to St.Louis, London 1957.
De Wulf (M.)	,Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York 1953.
Douglas (D.C.)	,William the Conqueror, London 1969.
Freiherer (O.)	,Constitutional Reorganization and Reform under the Hohenstaufen, trans. From German By Barraclough, (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 203- 233), Oxford 1948.
Ganchof (F.)	,Feudalism, Hong Kong 1976.
Haskins (Ch.)	,The Normans in the European History, New York 1966.
Heer, (F.)	,The Medieval World, Europe (1100-1350), translated from German By Barraclough ,(in medieval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.
Hinderson (E.)	,Select Historical documents of the Middle Ages, London 1923.
Hodgett (G.A.)	,A social and Economic History of Medieval Europe, London 1972.
Holmes (W.G.)	, The Age of Justinian and Theodora, London 1912. 2 Vols.
Hyed (J.)	, Socitey and Politics in Medieval Italy, The Evolution of the Civil Life (1000-1350), London 1973.
Joachimsen (P.)	, The investiture contest and the German Constitutions, trans. From German By Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.
Jones (A.)	, Later Roman Empire, Oxford 1964.- 2 Vols.
Kanntorowicz (E.)	, Frederick the Second, London 1931.

Mayer (Th.)	, The historical foundation of the German Constitution, trans. From German By Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.
Mitteis (H.)	, Feudalism and the German Constitution, trans. From German By Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol II, pp. 235-279), Oxford 1948.
Mundy (J.H.)	, Europe in the high middle Ages (1150- 1309), London 1973.
Ozmet (S.)	, The Age of Reform (1250-1550), London 1980.
Paoluci (H.)	, The Political Writings of St. Augustine, Indiana 1962.
Pfister (Ch.)	, Gaul under the Merovingian Franks, in (C.M.H.) Vol. II, pp. 133-158.
Pirenne (H.)	, A History of Europe, London 1951.
Pirenne (H.)	, Economic and Social History of Medieval Europe, London 1972.
Pounds (N.)	, An Economic History of Medieval Europe, London 1974.
Riley-Smith	, The Crusades: Idea and Reality (1095-1274), Documents of Medieval History, London 1981.
Runciman (S.)	, A History of The Crusades, London 1965.- 3 Vols.
Scott (W.)	, Medieval Europe, London 1975.
Setton (K.)	, A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-1989.- 6 Vols.
Southern (R.)	, Western Society and The church in The Middle Ages, penguin Book 1978.
Schmeidler (B.)	, Franconia's Place in the structure of Medieval Germany, trans. From German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp.71-94), Oxford 1948.
Slesser (H.)	, The Middle Ages in the west, London.- [s.b.]
Stephenson (C.)	, Mediaeval History, New York 1962.
Strayer (J) & Munro (O.)	, The Middle ages (395-1500), New York 1970.
Thatcher (O.) & Mcneal (E.)	, A Source Book of Medieval History, New York.- [s.b.]
Thompson (J.w) & Jonson (E.N.)	, An introduction to Medieval Europe (300-1500), New York 1966.
Tierney (B.)	, The Crisis of Church and State (1050-1300), USA 1964.
Tout (T.F.)	, The Empire and the papacy, London 1924.
Ullman (W.)	, The Growth of papal government in the Middle Ages, London 1955.
Ullman (W.)	, Law and Politics in the Middle Ages, London 1975.
Ullman (W.)	, A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.
Vasiliev (A.)	, History of Byzantine Empire, Madison 1964.- 2 Vols.
Vinogradoff (P.)	, Feudalism, in (C.M.H. Vol. III, pp.458-484) .- [s.b.]
Waley (D.)	, Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther, London 1976.

سابعاً: الموسوعات العربية المطبوعة والإلكترونية

الموسوعة العربية الميسرة ، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٥٩.

الموسوعة العربية العالمية ، رئيس التحرير أحمد مهدي الشويخات،أعمال الموسوعة، الإصدار الرقمي ٢٠٠٤

الموسوعة الحرة ويكيبيديا ، متاح على شبكة الإنترنت على الموقع: www.wikipedia.org.

ثامناً: دوائر المعارف الأجنبية

The Catholic Encyclopedia , Volume III. Published 1908. New York: Robert Appleton Company. Nihil Obstat, November 1, 1908. Remy Lafort, S.T.D., Censor. Imprimatur. +John Cardinal Farley, Archbishop of New York

كتب صدرت في هذه السلسلة

- الآثار الباقية عن البيروني (١)
- الدبلوماسية الأيوبية الصليبية ١١٩١-١١٩٢ (٢)
- تيبيريوس: ثاني الأباطرة الرومان (٣)

Reading In History & Civilization of Europe In Middle Ages

By

Mr.Ashraf Salih Mohamed Said

المؤرخ الصغير

eBook Arabic 2008 .com لبنان
الكتاب العربي الإلكتروني